وثيقة تُنشر لأول مرة

أ. جودريتش فرير

ADA GOODRICH FREER

ترجمة: خميلة الجندي

اسمها فلسطين

المذكرات الممنوعة لرحالة إنجليزية في الأرض المقدسة

الرواق للنشر والتوزيع

وثيقة تنشر لأول مرة

أ. جودريتش فرير

ADA GOODRICH FREER

ترجمة: خميلة الجندي

اسمها فلسطين

المذكرات الممنوعة
لرحالة إنجليزية
في الأرض المقدسة

الرواق للنشر والتوزيع

اسمها فلسطين

آدا جودريتش فرير

ترجمة: خَيلة الجندي

الطبعة الأولى: 2025

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com

الإخراج الفني: ضياء فريد
المراجعة اللغوية: سهيلة رمضان
الترقيم الدولي: 978-977-824-237-9
رقم الإيداع: 14698/ 2024

وثيقة تُنشر لأول مرة

أ. جودريتش فرير
ADA GOODRICH FREER
ترجمة: خميلة الجندي

اسمُها فلسطين

المذكرات الممنوعة لرحالة إنجليزية في الأرض المقدسة

الرواق للنشر والتوزيع

المقدمة

إن طرحنا السؤال الآتي: من مكتشف الأمريكيتين؟ لأجاب معظمنا: كريستوفر كولومبوس، وقد يحتج بعضنا ويُوصّح أن الإجابة الصحيحة هي جيوفاني كابوتو.. لكن، تظل أسئلة كامنة داخل هذا السؤال دون إجابة، ودون تمحيص؛ هل «اكتشف» الوصف المُناسب لما قام به كريستوفر أو غيره؟ ما معنى اكتشف؟ لم لا نقول «كشف» أو «صادف» أو «رأى» أو «مر بـ»؟ في سردية «اكتشف» تتبين لنا أبعاد أيديولوجية وسياسية استعملها من لهم يدٌ في محو تاريخ الهنود الحمر أو السّكان الأصليين للأمريكتين؛ في ذلك الفعل معنى أنّ الأرض لم تكن مأهولة، أو أن من فيها لا يُحسبون «سُكّانًا» لها، فيصير للفعل معنى آخر مبطن: اكتشفَ أرضًا بلا شعب، تصلح لشعبٍ بلا أرض.

هذه لعبة قديمة عمرها عمر العَالَم، نلعب على الكلمات، نُمررها مبطنة في أحاديثنا، فتُباد شعوبٌ ويتحوّل الجاني إلى مجنيّ عليه في لمح كلمة عابرة، قد لا يتبين خبثها من النطق الأوليّ لها.

إذن، ما الذي فعلته آدا جودريتش فرير؟ وقفت أمام تلك الألعاب والحيل دون عمد منها، كأنَّها «شاهد شَاف كل حاجة» وأدلى بشهادته أمام محكمة لا يجور حكمها أبدًا ولا يندثر: الكلمة! ما كتبته آدا ما هو إلّا قولٌ حقّ، مهما ابتعد عن أعين القراء فهو آمن بين دفتيْ كتاب. لا يُدافِع بحمية لسانٍ أو عرق أو دين، بل بكل بساطة تقول: لهذه الأرض أهل منذ قديم الأزل، وعادات أهلها عندما زرتها كذا وكذا..

لم تلجأ آدا إلى وصف الأماكن بعينٍ زائرة متجوّلة فقط، بل بطنّت رؤيتها بعدسة دينية؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، وهو دليلٌ واضح وصريح منها على أنَّ أهل هذا البلد لهم جذور كجذور الزيتون، راسخة عميقًا في باطن الأرض، حتى إن حسبت أن تقتلعهم فلن تستطيع، لذا رأينا من الضرورة أن نُعيد إحياء تلك الكلمة التي أخفتها الأيادي عمدًا أو سهوًا. فإثبات أن فلسطين أرض الفلسطينيين وأجداد أجدادهم أمر لا يحتاج إلى كثير جُهد، لكنه لا محال يحتاج إلى تسليط الضوء والتوثيق بجهد أكبر مِن المبذول.

نرى ملاحظات الكاتبة الدقيقة، ووصفها للأرض المُقدسة، لا تخلو أبدًا بين سطر وآخر من تأكيد -غير مُفتعل- وتوثيق -غير متعمد- أحقية الفلسطيني التاريخية في أرضه. كما أسهمت الصور التي زادت عن خمسين في توثيق الحياة اليومية، في البادية والريف والمدن، للعربي على أرض فلسطين، لتمحي ما هو مزيف من قول إن فلسطين كانت قبل وصول العصابات الصهيونية إليها أرضًا خاوية، وصحراء جرداء، مُجهزة لاستقبالهم، وأنهم عمرّوها وزرعوها. بل تقص الكاتبة بالتفصيل حكايا عن المستشفيات والمستوصفات والمدارس والمعاهد في أرض فلسطين وكيف بُنيت، والمنازل القديمة والحديثة آنذاك، ومعمارها العربي الأصيل الفريد في بنيانه وزخرفته، والكنائس العتيقة، والمساجد التي وُضع أول أحجارها على أرض فلسطين قبل قرون من وصول العصابات الصهيونية، وكذلك لا تغفل أن تتحدث عن اليهود باعتبارهم جزءًا من نسيج البلاد، فهم اليهود العرب، يعيشون على الأرض شأنهم شأن المسيحي والمُسلم، لهم منازلهم ومعابدهم وطقوسهم واحتفالاتهم. ولا يخلو هذا الكتاب من تسليط الضوء على ما جَمَع بين الأديان الثلاثة من عادات، ليس لأنها عادات دينية، بل لأنها تقاليد عربية مشتركة اتسم بها أهل هذا البلد آنذاك.

أولينا عناية إلى عملية التحقيق عند الترجمة، فأثرينا النّص بحواشي ترد الشواهد إلى أصولها، وتصوّب ما اعوجّ عنه فهم صاحبته، وأمَّا الصور، فوجدناها، نتيجة افتقار الكتاب إلى العناية بالحفظ والتحرير، موضوعة في كلّ فصل عشوائيًّا، لا تربطها علاقة بالفقرات التي بينها، لذا أعدنا ترتيبها بما يُناسب النص في كل فصل.

أما من الجهة التقنية فأود توضيح أمرين، أولهما لماذا اخترنا لفظة أورشليم للإشارة إلى القدس؟ يشهد لأسلوب الكاتبة بين طيات الكتاب لغتها المتأثرة تأثرًا واضحًا بالإنجيل، وحرصها الدائم على إدراج آيات من الكتاب المُقدس، ليس للتباهي أو السفسطة بل لأنها كانت في حالة مقارنة دائمة بين الأرض المقدسة اليوم، والأرض المقدسة حين سار على ترابها السيد المسيح، وكذلك لأنها متأثرة بدراستها وتعاليمها اللاهوتية التي أثرت بالضرورة في معجمها اللغوي وقدراتها التعبيرية. فكان الأكثر منطقية

الإشارة إلى القدس باسمها الإنجيلي وليس العربي، مع التأكيد في الحالتين على عربية القدس الأمر الذي يؤكده الكتاب بعين غربية إنجليزية متدينة دون جهدٍ منا في إثبات ذلك. أما آخرهما فهي ما قابلنا من معلومات دينية مغلوطة عن الإسلام جاءت لقصور الفهم، ولأن السيدة على أي حال لم تملك ما يكفي من اختلاط مع المسلمين بسبب الطبيعة الشرقية التي واجهت المستشرق بشيء من الحرص والحيطة، وكذلك المعلومات الدينية الدقيقة عن المسيحية التي احتاجت إلى شيء من التدخل في الحواشي لتوضيح القصد، أو تبسيط المعنى.

ولا يسعنا في النهاية إلَّا أن نوجه جزيل الشكر إلى الأستاذة ماريا جورج شكرًا وافرًا على مجهودها الفائق في مراجعة بعض المعلومات المسيحية، حتى يخرج الكتاب إلى القُرّاء على النحو المطلوب كما يليق بمحتواه الثمين.

المحررة

أورشليم.

فلاحتان تحملان زهرات القنبيط

يزرع الفلاحون الخَضْراوات هائلة الحجم وبخاصة القنبيط والفجل؛ مصدرها بلدتا سِلوان(1) ولفتا(2) غزيرتا الماء.

الفصل الأول

عند عتبة يافا

شيخ بدوي عربي على صهوة جواده.

على الأرجح ليس ثمة بلد قرأ معظمنا عنها كثيرًا ويعرف عنها قليلًا مثل الأرض المقدسة.

كَم مِنا -على سبيل المثال- لن يُفاجئ إذا سمع أنَّ لسان أهل أورشليم هو العربية، وأن هناك خمسين تركيًا على الأكثر في المدينة، وأن معظم السكان المسيحيين يدينون للكنيسة اليونانية، وأن الألمان يمثّلون غالبية السكان الأوروبيين، وأن ثلثي الحجيج روسيون، وأن العملة الرسمية فرنسية، والزراعة يدير اليهود قسمًا كبيرًا منها؟

علاوة على ذلك، يجد أغلبنا صعوبة في تخيل صورة متناغمة للأماكن مألوفة الأسماء مثل أورشليم وبيت لحم وأريحا. ما وصل إلينا هي الصور المقدسة التقليدية، التي تُظهر أشكالًا وألوانًا غير مألوفة كالمباني المسطحة التي تُشبه الصناديق هذا إذا جنبنا مظهر البنايات الألمانية أو الإيطالية؛ وكذلك أزياءهم الغريبة التي نميل إلى المبالغة في تقدير درجة تقليديتها، ونعتبرها زخرفة مسرحية، ونرفضها كأنها غير واقعية مثل غيرها. على الرغم من السائحين والتجارة الأوروبية وتقدم الحضارة، هناك حقيقة لا تخفى في مقولة: «الشرق الذي لا يتغير.» نميل إلى التعامل مع هذه الصور على أنها غريبة على العصر تمامًا كالراهبات الألمانيات والإرساليات الإيطالية غافلين عن إدراك أن منطقة يهودا كما وصفتها الحملات الصليبية أو الحجيج قديمًا حقيقية اليوم مثلما كانت منذ قرون.

المنقذ الحقيقي الذي حافظ على السمات المشرقية هو أن قليلًا من الأوروبيين في البلاد -أقل مِمن يزورونها- يتعلمون، أو يسعون إلى تعلم لُغة أهلها.

أما السُكان الأصليون فسريعون في تعلم لغات الأوروبيين ومحاكاتهم، وليس من دواع الابتهاج أن يخاطبك مواطن من بيت لحم أو الناصرة أو طبرية -مظهره يتشابه مع القديس يوسف أو القديس بطرس- بإنجليزية مفوهة يشوبها لكنة أمريكية أو كطبقة عُمال لندن! يفقد الإنسان -بطبيعة الحال- تفرده في المدن وحولها فيتخلى عن ملابسه المقصبة ويحظى بدرجة دنيا من التعليم لا تكفي ليحظى

بعمل شريف. لحسن الحظ، احتمالية الحصول على فرص تعليم أفضل ليست معدومة، خاصة بوجود دستور مما أضاف إلى طموحاتهم والتسهيلات التي تُرضيهم. تجدُر الإشارة إلى المدارس المرموقة والكليات التي يدعمها اليهود -وبخاصة يهود لندن وألمانيا- لأقرانهم في الدين في فلسطين، يُسمح لبعض المسيحيين والمسلمين ارتيادها حسب السعة.

أشير أيضًا إلى الفلاحين والبدو -على أطراف المدينة- وهم قاطنو المزارع والصحراء، قد تشعر أنك تعيش في زمن العهد القديم، وتُعيد استكشاف حياة البطاركة وتسمع القصص نفسها عن الخلافات حول المراعي والآبار، وبشأن شراء الأراضي وبيعها، وحيال مسائل تقسيم الميراث. من الفريد كيف تجني قصص الإنجيل الاهتمام، وتعود حيّة إلى ذهن مَن يملك معرفة وثيقة

بالأرض المقدسة؛ كَم من اللفتات البسيطة -التي نعرفها من القصص- تكشف عن معانٍ جديدة وأهمية. العرب أصحاب الأرض في يومنا هذا من سلالة سام -كما العبرانيون الذين قطنوها في عهد سحيق- فلم تختلف كثيرًا التركيبة النفسية، والعادات، والمظهر الخارجي، وربما الملبس والمسكن والبيئة المحيطة.

أورشليم

يافا

نقطة رسو الحجيج في يافا، مرفئ أورشليم. يظهر أعلى التل برج كنيسة الفرنسيسكان.

هذا ليس بالطبع جانبًا من الحياة يُحتمل أن يراه السائح، أو يعرفه مَن سيتعامل معهم. لكن قد يرى لمحة من الأصالة -حتى في المدن- حيث يأتي الفلاحون من القرى لشراء الأغراض أو بيعها في أورشليم، أو لاختيار زي الزفاف، أو ليستأجروا كاتبًا محترفًا يكتب لهم رسالة، أو ليأتوا ساحرًا للحصول على تعاويذ أو تمائم لشفاء المرضى.

دعنا -على سبيل الترفيه- نتوقف قليلًا عند واحد من أبواب أورشليم ونشاهد الناس تروح وتأتي. باب يافا يُقابل الجنوب، يُسميه السكان الأصليون «باب الخليل» وترجمته الحرفية «بوابة الصديق»، لأنه يقابل الطريق المؤدي إلى قبة راحيل(3) المقابلة لبيت لحم وبرك سليمان نحو الخليل موطن إبراهيم «خليل

الله». هذا الباب الأقرب إلى الأجزاء المزدحمة من المدينة، الأسواق، أو ما نطلق عليها الشوارع التجارية.

انتصف النهار، وباع القرويون الذين وصلوا مع شروق شمس الصباح بضائعهم: البيض، والدجاج، والمزروعات، وجرار اللبنة، واللبن الرائب، وسيغادرون المدينة. من الممكن أن تشي ثيابهم بالقرية التي ينتمون إليها، يسود الكحلي والأحمر ألوان ثياب النسوة، لكن حجابهن الطويل المنسدل إلى ظهورهن إما سماوي وإما أبيض، وعادةً مُقصب، أو يحدده الدانتيل. كُل امرأة تحمل سلتها العريضة الواسعة فوق رأسها وفيها تتكوم بضائعها، أغلبهن يحملن طفلًا مُثبتًا إلى ظهورهن برباط بينما الطفل الأكبر قد يجلس على كتفهن، أما الثالث وربما الرابع أيضًا يتشبث بأذيالهن. نادرًا ما تفشل «أغصان الزيتون» في مباركة هذا العرق، وعلى سيدة السوق أن تُبقي يديها حرتين لتتعامل مع بضائعها.

يرتدي الرجال عباءات من وبر الماعز وأقمصة زرقاء أو بخطوط ملونة تصل إلى أقدامهم زرقاء، ولا يصطحبون عائلاتهم عائدين إلى المنزل بل -كأقرانهم- يمكثون للحديث وتبادل الأخبار. تنتشر حول الباب، والطرق المؤدية له، ظُلَل الباعة حيث يُباع الخبز المشرقي ويُشترى، وكذلك فواكه الموسم، وفي حالة أرادوا طعامًا أكثر رفاهية يشترون البيض المسلوق المُحمَّص على الجمر، أو قطع اللحم المشوية على أسياخ (الكباب). يحظون بوجباتهم وقوفًا، ثم يعبرون الطريق إلى أحد المقاهي، نظير قطعة نقدية تعادل نصف البنس يُقدم لهم فنجان قهوة ومقعد واطئ وعلى الأرجح يمكثون هناك حتى المغيب. المشرقي العتيد يتمتع بمقدرة هائلة على الخمول. إذا سمحت له أمواله أن يشتري التبغ أو السجائر أو الأرجيلة، فسيحيا مُنعمًا.

أورشليم

زيارة السوق

تحرص سيدات السوق على رفع بضائعهن فوق رؤوسهن وحَمل أبنائهن على ظهورهن ليحافظن على أيديهن فارغة لأعمال التجارة.

ثمة لفيف من رجال المدينة في هذا الزحام. مظهرهم أكثر صحة وبشرتهم أقل سمرة مِن جيرانهم القرويين. إما يرتدون ثيابًا أوروبية -لا تليق بحرارة المدينة وترابها- وإما قمصان كأقرانهم من الفلاحين لكن غالبًا حريرية وفوقها عادة يرتدون معطفًا أوروبيًا وليست العباءات الثقيلة التي يرتديها الفلاحون المزارعون. تعرف الرجل من بيت لحم من بنيته القوية وهو يرفل في عباءته السوداء مزخرفة الياقة بخيوط ذهبية أو فضية، أما زوجته فتتمتع بجسد مكتنز وتتميز بثوبها الطويل وقبعتها القرمزية المزينة بقطع نقدية يتدلى منها غطاء رأس طويل أخف من غطاء الفلاحات. يمكن أن توضع بيت لحم إذن في مصاف المدن الصغيرة.

داخل بوابة يافا

الفلاحون يفدون إلى السوق. يرتدون صيفًا وشتاءً ثوبًا ثقيلًا ليقيهم الحرارة والبرودة على حدٍ سواء.

تحافظ نساء أورشليم على تقاليد الملبس، فتراهن يرتدين ثوبين يجمعهما عند الخصر رباط، أحد الثوبين يُغطي تنوراتهن -عادة ما يرتدين تنورات عصرية وراقية- والآخر يُغطي الرأس. النساء اليافعات أحيانًا يُعدن تصميم الثوب الذي يُغطي الرأس ليُشبه قبعة جميلة. المسلمات، وعدد كبير من المسيحيات، يُخفين ملامحهن خلف منديل -قطعة قماشية ملونة- غالبًا مطرزة الحافة بقماش الدانتيل. لون الثوب (الإزار) إما من القطن الأبيض، وإما الصوف، وإما أحيانًا من الحرير، ويُصنع بتصميم راق وجودة عالية. أكثر مَن نراهم هذه الأيام يرتدين الأثواب المصنوعة من القطن الأبيض وهي دلالة على تحفظهن أكثر من فقرهن، وبالطبع كثير من السيدات من العائلات الكبرى يرفضن ارتداء الحرير الذي يُمثل التطور الحداثي المنسوخ من القسطنطينية، والحرير لا قيمة له عند مدبرات المنزل اللائي يمارسن مهام التسوق لأولئك السيدات بصحبة خادمة أو اثنين.

هناك أمثلة على سيدات يرتدين ثيابًا صارخة الموضة. أغلبهن على الأرجح من الشام، وجزء منهن أوروبيات، وأُخريات أوروآسيوات من الشرق الأقصى. مع ذلك لا يُستثنى أن بعضهن عربيات -مسيحيات بالطبع- تخلين عن ملبسهن المحترم بحثًا وراء تفاهات الموضة في باريس أو نيويورك. أقرانهن من الرجال يرتدون على الأرجح فِراكًا(4) ملونًا -بنقش يشبه مربعات الشطرنج- وحذاء أصفر فاقع لونه، وطربوشًا إشارة أن مرتديه عنصر تركي. يمر يهودي بين كُل ثلاثة أو أربعة أفراد، مَن ينتمي منهم -من النساء أو الرجال- إلى الطبقة العُليا، يرتدي ثيابًا أوروبية، ولا يتخلى عمّا يميزه كالآخرين من اليهود. أما

إن كان ينتمي إلى الطبقة الدنيا، فترتدي النساء كيفما اتفق، وكثيرًا من الحُلي؛ المرأة المتزوجة تغطي شعرها بشعر مستعار أو منديل. رجال اليهود من الطبقة الدنيا، وبخاصة الشرقيون، يرتدون سترة طويلة فضفاضة من المخمل أو القطن أو الحرير، وقبعة من الفرو، وشعرًا مستعارًا مُجعدًا ينسدل على جانبي الوجه خضوعًا للآية: «لا تُقَصِّروا رُؤُوسكُم مُسْتَدِيرًا، وَلا تُفْسِد عَارِضَيْكَ.» (لا ١٩:٢٧) ويفضلون ألوانًا مثل البرتقالي، والأزرق الزاهي، والزمردي. يتحركون متثاقلين، ويستخدمون العربات مسافات يسير سيرها. يمكنك أن ترى ستة أو ثمانية منهم يتشاركون عربة وهي عربات الأجرة الشائعة في أي مدينة مشرقية.

من فينة لأخرى نقابل بدويًا، بسهولة يمكن تفريقه عمَّن حوله بمظهره المميز، الأسمال زيه الوحيد. يبث شعورًا بانفصاله عمَّن حوله، ليس كما يوحي الجمل الذي يمتطيه، أو أحيانًا يجره. يمشي بسهولة رجل اعتاد رمالَ الصحاري، رأسه الشامخ فوق كتفيه، يوحي باستخفاف البرد والحرارة على حد سواء، يسير وحيدًا أو في جماعة، ونادرًا ما يجلب نساءه إلى المدينة. لكن إذا حضرن بسهولة يُميَّزن، جدائل ثقيلة لشعر أسود كحلكة الليل تهرب من خلف حجابهن الأزرق الداكن. وجوههن موشومة، عادةً بشعار القبيلة، أو ما يُعرف بوسم القبيلة التي ينتمين إليها. أما عباءتهن، الزرقاء، فخيطت لتصلح لسيرهن، فضفاضة، تمتد ذيولها ياردة أو اثنتين خلفهن. هذا الثوب، وغطاؤه الذي يصل إلى أقدامهن، علامة على أن صاحبة الثوب لم تتعدَ حياتها العملية أكثر من مهام الخيمة. أما الفلاحة العاملة ابنة القرى فترتدي إزارًا قصيرًا وعباءة يُمكنها عقدها إلى الخلف حين تشرع في العمل. يفتخر الناس في البادية بالعرق وليس الثراء، مع ذلك كثير منهم، مثل إبراهيم(5)، يملكون قطعان، وماشية، وجِمالًا، وخدمًا. سأل أوروبي ساخر أحدهم قائلًا: «أتوقع أنك تتقصى نسبك إلى النبي إبراهيم؟» فأجابه العربي: «قطعًا، ولكن ليس كُل نسله صالحًا!»

امرأة وطفلها.

هذه السيدة ترتدي ثوبًا وزينةً تشيان أنهما مصريان أكثر منهما شاميان، تنتمي إلى المُستعمرة التي تركها إبراهيم باشا في بادية فلسطين، وهو مَن غزا الشام عام ١٨٣٣.

حين ننظر خلف ظلال باب الخليل نلمح زحامًا لا يُشابهه زحام، لا يعتاده حتى أكثر المسافرين خبرة. ما سلف ووصفناه بالفعل، عناصر يمكن ملاحظتها كُلها أو بعضها في مُدن شرقية أخرى مثل القسطنطينية ودمشق والقاهرة. قاطنو هذه المدن يتشابهون كثيرًا، لكن أورشليم تقف متفردة بتنوع الأعراق التي تفد

إليها من كُل أنحاء الدنيا لزيارة المدينة المقدسة. في طي سنوات من المعرفة الثاقبة عن الأرض المقدسة، قابلت أبناء القارات الخمس، وعددًا كبيرًا من أبناء الأمم التي تقطن هذه القارات.

مقدسات أورشليم عزيزة على المسيحيين واليهود والمسلمين. كما يسهُل الوصول إلى فلسطين من كل بقاع أوروبا، وحتى الأيسلنديون والفنلنديون، والسكندنافيون لا تشق عليهم الرحلة. تبعد بورسعيد وهي بوابة البحر الأحمر، مسافة ليلة واحدة عن يافا، ميناء أورشليم، وعبر البحر الأحمر يمر كثيرون من المسافرين الوافدين من أستراليا وجنوب إفريقيا، وكذلك لزامًا على الوافدين من الهند والصين واليابان المرور عبره. أما الأمريكي فيعرّج عليه في طريقة الدائري حول العالم الذي يعتبره الأمريكي تفصيلًا مهمًا في رحلات العلم. المسلم، من جهة أخرى، ومع التوسع المستمر للإيمان المحمدي الذي زرعهم في شتى بقاع الدنيا، يولون الحج إلى أورشليم المرتبة الثانية في الأهمية بعد الحج إلى مكة. وفلسطين في نظر اليهودي لا تمثل سوى ماضيهم وكذلك مستقبل عِرقهم.

يؤمن المسلم أن يسوع المسيح سيأتي في آخر الزمان ليحاكم الأمم في الوادي الذي يقع بين شرق حائط المعبد وجبل الزيتون. أما اليهودي فيؤمن أن عرقه لن يُبعث إلا في وادي يهوشافاط(6)، وأن مَن يموت ويدفن خارجه عليه أن يُجلب بأي طريقة بعد موته. آلاف اليهود الذين يصلون إلى أورشليم لا يحملون سوى أمنية أن يموتوا هناك.

هل ثمة بقعة أخرى على الأرض تحمل هذا التأثير المغناطيسي في الجنس البشري؟

الاستعداد لصلاة الظهر

خلال رحلة في البادية.

الفصل الثاني

بريق الأرض المقدسة

هناك مَن لا يقعون أبدًا تحت سحر الأرض المقدسة. بعض منهم -ولعجب مَن يحبون ترابها المقدس- قادرون على الارتحال من دان إلى بئر سبع(7) ويطلقون عليها أرضًا «جرداء».

من الجلي بلا شك أن البشر يرون ما يبحثون عنه، وليرى الإنسان الأرض المقدسة بعين الحق، عليه أن يجني معرفة دينية ودنيوية بالتاريخ، ويحتاج إلى القدرة لتبني غير المألوف، ويلزمه الإحساس بالأشياء والألوان أكثر من التسليم بعقيدة الجمال، ويقتضي أن يملك نظرة أوسع تقبل الجديد دون الحاجة المُلِّحة إلى مُقارنته بالقديم. مع ذلك، ليس الأكثر تعلمًا، أو ثقافة، أو أصالة، مَن يجد مبلغ سروره في فلسطين، بل الباحثون عن سيادة الجمال، مَن ينظرون إلى قلب الأشياء ويرونها «في ضوء لم تأت به يابسة ولا بحر»(8)، القادرون على النظر إلى الخلف نحو مهد العالم، وفي داخلهم يستشعرون بيقين أنهم يحدقون إلى مسرح دارت عليه أعظم دراما في تاريخ العالم. يمكن القول إن في هذه الدولة، ولعبقريتها وعبقرية أعراقها، ولدت الديانات الثلاث العظمى في العالم، أي أنك لتسبر أغوار هذا المكان وشعبه -فقط- على الإنسان أن يدخل إلى الفلسفة والسيكولوجية والعقلية التي تشكل غالبية الجنس البشري، ربما نظن أننا منفصلون عن هؤلاء الشعوب السامية، لكن أفكارهم وخبراتهم وإلهامهم أهدوا العالم أجمع القانون والدين والإنسانية.

شارع مُقنطر

تُظهر الصورة ضيق أحد شوارع أورشليم وتكوينه المثير للاهتمام. أغلبها مع ذلك لا تسمح ارتفاع قنطرتها لمرور الجمال.

«فلسطين هي أفضل كتيب إرشادي إلى الإنجيل.» هذا ما أؤكد في واحد من أفضل كتيبين إرشاديين -موراي(9) وبادِكر(10)- في وقت تميّز كلا الكتيبين بالجودة. «الإنجيل هو أفضل كتيب إرشادي إلى فلسطين.» هذا ما أكده الكتيب الآخر. روح التقديس -تقديس الرب والإنسان- هي عامل مساهم آخر وضروري لمَن يرغبون في اعتناق روح الأرض، تقديس لا يفت في عضده الخيبات السطحية والتباينات الظاهرية. ربما يظن بعض الناس أن الشعر يُبالغ حين يصف أورشليم: «جَمِيلُ الارْتِفَاعِ، فَرَحُ كُلِّ الأَرْضِ»(11)، لكن المرء لصار جاحدًا إن فشل في اعتناق روح الولاء التي تدفع الزيف، سيكون جاهلًا أيّما جهل بالتاريخ إن لم يتتبع الأسباب الأخلاقية والعرقية التي تصل إلى نقطة رأي كتلك.

مع ذلك، يرى المسافر العادي مع دفتر رسمه وعدسة كاميرته، أو القارئ التقليدي، أو أقل دارسي الإنجيل معرفة، في فلسطين موردًا لا ينتهي من الإشارات واللذات. «المرشدون الشخصيون» والجُدد يرون من الضرورة زيارتها قبيل زيارة مصر أو عقب مغادرتها، ليشهد الزائر أيام الخريف البديعة حين تستيقظ الأرض بعد سُبات الصيف، ففصولهم مختلفة عن الفصول التي اعتدناها. يصل الزائر إلى فلسطين غالبًا في وقت بارد يلحق بالأمطار المبكرة، أو قبل أن تمتد يد شعاع الربيع الأول -و«الأمطار الأخيرة»- لتصبغ الأفق بزهور الربيع القرمزية والبنفسجية والذهبية. بعضٌ يشتكي أنه بلد باهت وأجرد، لكن محبيه يرون في المناظر البديعة خلال السنة جمالًا خالدًا. ليس ثمة أهم من فصلي الشتاء والصيف، ويفصلهما عيد المظلة اليهودي، وعيد الحصاد، وهي مناسبة ليست ثابتة في توقيت محدد، ولكن غالبًا ما تقع بين نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر.

عبور ضفتي نهر الأردن

يُزعم أنه مسرح معمودية المسيح.

بحلول تلك الفترة تُحصد كُل المزروعات، والقمح يُحصد قبلهم في أبريل ومايو. ثم تُحصد أنواع الفول المختلفة، والأعشاب، والخيار (أنواع مختلفة منه لا نعلم عنها شيئًا)، والخَضْراوات، وكل المزروعات المهمة للإنسان، خاصة المزروعات الخضراء. ثم تُحصد الحبوب، والدُّخن، والسمسم، الأخير ليس مختلفًا عن قفار الثعلب في مظهره، ويُغطي مساحات واسعة من سهل شارون. في أغسطس وسبتمبر تُنبت الأرض الصبار، وزهرته الشهية المُنعشة الباردة في الأيام الحارة، وكذلك البلح، والتين، والرمان الذهبي(12) والقرمزي، والجراد يقف بأجنحته السوداء الطويلة على أوراق شجر الخروب المُدهمة، وأشجار اللوز، والمشمش، والخوخ، وأخيرًا يحين حصاد العنب.

وقت حصاد العنب هو أوان بديع في فلسطين. بعدما تنقضي فترة حصاد الذرة، تحل فترة «العراء» كما يطلق عليها مَن لا يعي لطف الألوان الخلابة، فترة شاحبة ولكن مُلهمة للأعين الغربية بفضل تدرجات ألوانها. تلك التي تُشكِّلها ألوان الحجر الجيري والأرض التي لفحتها الشمس، وأشجار الزيتون الفضية اللامعة، وأفرع أشجار التين نصف العارية ذات الأوراق العريضة أول مَا يُزهر تحت أشعة شمس الصيف. لوحة فنية تلك، منظر شتوي فوق خلفية حارة وسماء ياقوتية صافية. على مقربة، تُرى تدرجات البني التُرابي لأرض خصبة زاخرة بعدد لا يُحصى من الأزهار الصغيرة، أحدث هدايا الصيف، تتجمع حول جذور أشجار التين والزيتون واللوز، ليس في مساحة كبيرة كما في وقت سابق من العام، ولكنها توحي بحميمية وانسجام ودودين، كقوم من الأقزام يسرّون الناظرين.

تدريجيًّا ونحن ننظر نحو التلال التي تحيط أورشليم، تتغير الألوان لأن كروم العنب الناضجة تتسيد المشهد بهاءً.

تتحول أبراج مراقبة الكروم(13)، والأكواخ التي تضمها حدائق الخيار -التي يراها العابر أطلالًا وحيدة- إلى مشهد يضج بالحياة. تترك النسوة والأولاد قراهم، ويأتون رفقة حُراس أراضي الكروم، لينعموا ببهجة موسم الحصاد. يجدون على الطريق يقطينة تظلهم، كيونان، أو صخرة عظيمة أو طلل برج مراقبة تقيهم حرارة شمس النهار ورطوبة الليل. العنب الناضج غذاء وشرابًا، ليس ثمة نزاع عليه، قليلًا ما يُقال لنا

ولكم، إنها عطايا الرب. الحراسة غرضها مراقبة الضواري وليس البشر، «النِّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُومِ.»(14)

لا تُزرع الكروم هنا في ممرات مقنطرة، كما في أوروبا، بل تُترك مائلة نحو قلب الأرض الدافئ، تتفاعل مع الحرارة إلى درجة أن «تُلونها» من الجانبين، إلى درجة قد يظنها المرء مستحيلة. يقطف اليهود والمسيحيون الكروم ويحملونها لصناعة النبيذ، أما المسلمون فيجففونه لتتحول إلى ما يُعرف بـ «سلطانة»(15) للتجارة. مجددًا نرى مشهدًا زاهيًا واحتفاليًا في كروم العنب.

بئر حديقة الزيتون.

هناك عدد قليل من الأنهار في فلسطين، وتجف جداول المياه الجبلية أكثر من نصف العام، لذا أبرز ملامح كُل قرية هو البئر.

حُصد العنب وانتهى مع حصاده عمل السنة. انتهى المزارعون من جمع الغلال وتقديرها، وتبدأ الاحتفالات الأهلية. تُسمع ليلة تلو أخرى صيحات الفرح مُعلنة عن حفل زفاف، ومع بلوغها الذروة، يُسمع «ها هو العريس» ويُسرع موكب من حاملي المشاعل ليلتقوه. المشرقي بسجيته الطفولية اللامبالية يملك نهمًا بالغًا للأجواء الاحتفالية، وسعة تساعده على الاستمتاع بالمُتع الصغيرة التي يفتقرها رجال أوروبا الشمالية الجادون. فمثلًا شم الهواء(16) متعتهم الكُبرى، ليس ثمة شيء أكثر ضرورة من الهواء الطلق وشعاع الشمس وصحبة الأصدقاء والخبز والفاكهة والسجائر.

يلحق هذه الأيام فترة قَلِقة. يدنو موسم الحرث، الأرض الملفحة بأشعة الشمس ترفض لمسة الزُرّاع، الصهاريج شبه خاوية من الطعام لندرة الماشية. تمضي الأيام، وتتحول السماوات إلى «نحاس»(17).

«عيد اليهود يقترب،» يقولها الناس آملين؛ المسلمون والمسيحيون على حد سواء وبإيمان شديد أنها حل المسألة. عيد الحصاد لا يخلو من صلوات لتُزهر الأرض فاكهتها في الموسم المُحدد. لن يُذعن أحد لمسألة السبب والنتيجة، لا يُنفى أن المطر متوقع في هذا الوقت من العام، لكن الحقيقة تبقى الحقيقة كما هي أنهم يتركون منازلهم لزيارة أصدقائهم العبرانيين في منازلهم الصيفية الخضراء الجميلة، يدٌ

تحمل مظلة، وأخرى تحمل معطفًا مقاومًا للمطر! حين تُمطر تُشبه الأمطار المدارية، يُقال إن معدل تساقط الأمطار في فلسطين يُعادل تقريبًا المعدل في لندن. أما الفترة من مايو وحتى أكتوبر -وكذلك عدة أسابيع أخرى على مدار العام- فتشهد أمطارًا خفيفة.

يُلاحظ أن الأيام القليلة التي تلي «المطر المبكر(18)» يختلف لون الأرض كُليًا. الحرث يُحرك ألوان الحقول ودرجاتها، تتضح وتتجدد ألوان الأشجار والأحراش، متناغمة مع أسطح المنازل الحديثة الحمراء، وأسطح المنازل القديمة الرمادية والبنية الداكنة. يمر أسبوع أو اثنان لتزهو الزهور التي لا تُضاهى.

«وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا!»(19) وبالعروج على الزهور، أول ما يُزهر الزعفران، ثم يتفتح النرجس ونرجس الجنكيل في بقاع محمية لتفوح عطورهم في أواخر ديسمبر. لكن المجد يُكلل الزهور القرمزية كالشُقار الإكليلي، وشقائق النعمان (يُلقبها السكان الأصليون «قطرات الدم»، لأنها نبتت أسفل الصليب)، والحوذان(20)، وتلحق زهرات التوليب، بزهور الخشخاش، وزهرة الكتان الأحمر، والأناغالس(21) لتتناغم درجاتها مع درجات الوردية الناعمة لزهور بخور مريم(22)، وشقائق النُعمان، والقريضة(23). يظهر في المشهد كذلك اللوف الفلسطيني(24) بدرجاته البنفسجية والذهبية والأسود المخملي المثير، وكذلك الكتان الأصفر والشُقار الإكليلي الأصفر والحوذان الأصفر، وزهرة الدلبوث(25) ذات اللون البنفسجي المائل إلى الأحمر الناري التي تظهر بأوراقها من بين أفرع الذرة الشامية الناضجة، وأنواع لا حصر لها من نبات الأركيد(26).

الأردن.

حوض النهر الجميل محط اهتمام تاريخي ويمثل بريق الأرض المقدسة.

أما تدرجات الأزرق فتجدها في نبات العائق(27)، والجَعدَة(28)، وأذن الفأر، واللوف الأرجواني معجزة الرقة والأناقة يتميز بهشاشة تمنعك من جمعه رغم كُل المغريات. وكذلك درجات الجُريس(29) المختلفة، ونبات المارجريتا -الأصفر والأبيض- ذو البتلات العريضة، ومَن يبحث عن الأقحوان الإنجليزي سيعرف أين يجده وذلك العَسلة، والزهرة البرية. أما الخُبَّازَة(30) فتجذب انتباهًا خاصة بألوانها المختلفة سواء عديمة السيقان أو التي ترتفع أقدامًا عدة عن التربة، والخُبَّازة هي الجد لنبات الخطمية الإنجليزي، الذي أحضره الصليبيون عند عودتهم من فلسطين، وُعرف حينها باسم «الخِتمية».

في وسعك أن تحمل إلى الوطن فروع اللوز، أو زهور الرمان القرمزي، أو الزيتون اللامع، أو الخُزام اليافع. يُمكن أن تصنع باقة زهور من الهليون البري(31)، أو نبتة كزبرة البئر الرقيقة التي تُزخرف صخورها، مثلها كمثل زهرة «إكليل العروس» التي تنمو في الخارج.

كُل هذه الألوان وأكثر، بكثير، تتناغم مع صوت البُلبُل، المغني الرئيس في المشهد، ولكن تتناوب الطيور الإنجليزية على الظهور في المشهد. حتى طائر الوقواق يتغنى به العرب الهائمون كما وصفه الشاعر(32): «صوت محتار.»

ثم يخيم الصمت! صمت منتصف النهار، حين يتآوى الطير إلى عشه والوحش إلى عرينه، وحتى «ضجيج النحل المستعر»(33) يخمد. حينها يلتجئ الراعي وقطيعه من ظلال صخرة عظيمة، ولا يبقى سوى صوت عظاءة تستلقي في الشمس فوق صخرة، أو حركة كلبٍ ضالٍ يتسلل نحو مخبئه، هما المؤشران على عالمٍ حي.

أما صمت الليل فأقل اكتمالًا. الليل وقت الارتحال، يكسر سكونه أجراس الجِمال المُنذرة بخُطى الوحوش الوئيدة المتسللة، وثرثرات قوافل الحمير، وأصوات أجراس البغال، وأغاني العرب الجامحة الغريبة من رجال لا تخشى الوحوش لكنها تُغني لتطرد الجن -الأرواح- وليسوا بالضرورة أشرارًا، ولكنهم يجولون في الليل.

أُهناك ليالي تُضاهي ليالي الشام؟ أيمكن للمرء أن يُدرك رحابة الكون الواسعة في مكان آخر؟ لا ريب أن الخليقة لا تتجلى بهذا الوضوح إلّا تحت نجوم الشام! يخبو آخر ضوء للنهار سريعًا بعد المغيب. «خطوة واحدة تُسلمنا إلى الظلام،»(34) ثم، في السماء الخالية من الغيوم، تندفع النجوم بأعداد هائلة ورائعة لا يتخيلها مَن لم يرتحل.

عند التصدي للحديث عن بريق الأرض المقدسة، بالتأكيد من الإفراط أن نتشعب في تاريخها. هي الأرض «التي خطت فوقها قدما المسيح المبارك(35).» ما تخبرنا به الأرض هي رسالة من الرب على الإنسان أن يُبقيها بين سجلات روحه غير المكتوبة، ولا يسمح ليد دخيلة بالتطفل عليها. لكن هناك رسائل أخرى يستنبطها المُفكر، نتذكرها مع كُل منعطف.

الأرض التي نسير فوقها، الجسور التي نعبرها، المحطات التي نتجاوزها نحو مقصدنا، القنوات المائية التي تشق طريقها عبر كثيرٍ من البساتين، تُعلمنا ألّا نتكلم هنا فقط عن المرجعية اليونانية الرومانية. إلى شمالنا تقع دمشق، أقدم مدينة في التاريخ، وإلى جنوبنا تمتد البتراء، «زهرة حمراء عُمرها نصف عمر الزمان»(36). يمكننا أن نجمع فسيفساءات من أطلال كنيسة صليبية، ربما بُنيت على يد قنسطنطين أو شارلمان. وربما نشاهد اليهود المنتحبين بجوار بقايا المعبد حيث شهدوا على وحدانية الإله، وبجواره يصدح صوت مؤذن من منارة(37) قريبة. ربما نرتاح تحت ظلال أشجار واطئة في حقل ساكنيه القدامى زرعوا «كُل جبل عال.» ربما نزور بيوت اليبوسيين(38)، الذين هزمهم بنو إسرائيل بصعوبة، أو نعثر على أعمال فنية كالمشغولات الزجاجية، أو بدائع الأعمال اليدوية التي صنعها الفلستينيون(39) والفينيقيون، ربما نوجه عدسات الكاميرات نحو جنادل(40) ومناطير(41) على الأرجح كانت مراكز تعبُّد لأقوام اندثروا من أمد.

نتحدث عن سحر البشر أنفسهم، وأشعارهم، وتراثهم الشعبي، وجمالهم الشخصي النادر، وعقليتهم الغريبة المُحيرة، وثيابهم الطريفة الجذابة الغريبة، أشياء تُوضح لنا كثيرًا من الماضي المفقود، نتحدث عن لطفهم وكرامتهم وحسن استضافتهم، لذا لنستفضْ في فصل آخر.

صبية عند البئر.

مهمة الصبية سُقيا الماشية في القرى المجاورة. ويتخذونها فرصة للوضوء والاغتسال.

الفصل الثالث

حياة الصحراء

حرث الحديقة.

المشرقي يكن حُبًا جمًا للزهور، خاصة العطرية. والحدائق من أهم هواياته.

الحياة الأصيلة في الأرض المقدسة هي حياة الصحراء. نعثر في الصحراء على أحفاد إبراهيم، يملكون الأسراب والقطعان، يعيشون في خيام، يُحركونها من مكان إلى آخر وفقًا للموسم ووفرة المياه وطعام الحيوانات. تقع المشاحنات، كما في قصص الإنجيل، حول حق القبائل في الآبار والمراعي. هناك تحالفات بين قبائل بعينها، وعداوات موروثة بين قبائل أخرى، تمامًا كما شارك إبراهيم في معركة الملوك الأربعة ضد الخمسة، و«الملوك» في هذا العصر هم الشيوخ مَن يملكون سلطة على قومهم ويندر مساءلتهم. مقر النساء في الخيمة مُسدلة أستارها، تمامًا كما في أيام سارة أو ياعيل، يستطعن سماع كُل ما يدور دون رؤيته. أحيانًا يُقاد جُزء من القطيع بعيدًا عن أكمله ويرافقه عدد من أفراد الأسرة، فيما يُشبه إخوة يوسف حين ذهبوا لرعي قطيع أبيهم في شكيم وأُرسل معهم الفتى ثم أُلقي في جُبّ فارغ، ويمكننا إلى الآن أن نقابل كثيرًا من الأجباب الفارغة، وتُمثل خطرًا مُحدقًا للإنسان والوحش، كما جاءت الآية: «أَبْآرًا مُشَقَّقَةَ لاَ تَضْبُطُ مَاءً.»(42)

كثيرون مِن بين مَن لم يرتحلوا لديهم فكرة غير مكتملة عن مظهر البرية، ويظنونها مساحة شاسعة من الرمال المستوية تفتقر تمامًا للغطاء النباتي. لكن زيارة لبرية يهودا ستُقوم هذا الانطباع فورًا. ليست مساحة مستوية بل تظهر نتوءات الكثبان الرملية على امتداد البصر وحول قواعدها ممرات، أغلبها متعرجة، وتمتد مسافات طويلة في اتجاه واحد، وهي كثبان شبه مستحيلة التسلق لهشاشتها. طبيعة الكثبان الرملية تتسم بقوام يضغط الرمال ولكن يُبقي المسافات بين جزيئاتها واسعة، أما سطحها فمتُغير على الدوام بفعل الرياح. امتطاء الخيول عبرهم خلال الليل يمنحك مشهدًا بديعًا لأشكالهم المتباينة تعانق السماء متلألئة النجوم، ولا تحتاج إلى قليل من الخيال لتصور مشهد وأنت تهيم في مدينة مهجورة ما، مشهد ربما جاء في مخيلة الشاعر حين كتب:

«... ونظير مَن يتخيل مشهدًا لا وجود له، ها هي الأبراج التي تناطح السحاب والقصور الفخمة والمعابد المهيبة، ...» (43)

ثم في اليوم التالي، حين يُعري ضوء النهار أسرار الليل، يُجبر المرء على إتمام المقتطف.

«... وهكذا في هذا الاستعراض المشؤوم يغيب الواهمون ولا يتركون وراءهم أي أثر...»(44)

لا تفتقر الصحراء للغطاء النباتي. تُرى الأحراش بكثافة في وادي الأردن، توفر مخبئًا آمنًا للحياة الحيوانية، ولمسارات الطيور، ولحيوان الجربوع الصغير الذي يقفز مثل كنغر ضئيل. عادة ما تبيّض الأغصان بسبب تراص قواقع الرمال، وأسفلهم ربما يعثر المرء على بيض السحالي الأبيض المثير للاهتمام. هُناك شجيرة تُزهر الفاكهة المعروفة بـ «تفاح سديم» أو «فاكهة البحر الميت»، واسمها رمزية معروفة، ظاهرها ذهبي وزهري وباطنها أشبه بالإسفنج يتحول في وقت لاحق من الموسم إلى مسحوق باهت ورماديّ. هُناك أيضًا أشجار العناب بأشواكها الطويلة التي تُرهب المارة، ولكنها تحمل فاكهة مثلثة الشكل لذيذة تنضج مع حلول يونيو مُنعشة ومفيدة. وبالحديث عن النباتات الأصغر حجمًا فالأكثر شهرة هي زهرة «كف مريم»(45). نسبها لاسم زهرة يبعث على السخرية لأن لا لون ولا رائحة لها، وبصعوبة يمكن تمييزها عن الرمال التي تنمو فيها. تنتمي «كف مريم» لزهور الصقلاب وهي زهور تنحدر من جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة الدفلية ويتكيف على أغرب الظروف الطبيعية. ثمة زهرة صحراوية واحدة لها مظهر بارز، وهي زهرة الحامول التي ترقط الرمال بحلول أبريل بمظهرها الذهبي، وتكوينها الهرمي قليل الأوراق، وارتفاعها عدة إنشات عن الأرض لتمثل نزوة غريبة من نزوات الطبيعة.

برية يهودا

البرية ليست مساحة خاوية مستوية. تتنوع تضاريسها بين نتوءات التلال الرملية وأسطحها ليكونا مشهدًا رائعًا ويتغير دومًا بفعل الرياح.

جبل التجربة.

هذه الصورة الفريدة تُظهر قمة جبل التجربة والدير اليوناني ومشهد كنيسة عتيقة. وتمتد برية أريحا في الأفق.

ثمة قبائل عدة من بين سكان الصحراء، يختلفون في الصفات والتصرفات والمظهر، وهذا يمكن تفسيره إن عرفنا تاريخهم وأحوالهم، ويمكننا تناول هذه الأمور هنا باقتضاب وجيز. مَن يلقاهم المسافر ويتعامل معهم هم الطبقة الدُنيا، نصف غجريين، يترددون إلى المدن المجاورة مثل أريحا، ليجنوا المال من السياح -منتحلين صفة الترجمان- وأحيانًا يقلدون الأفراح والرقصات والاحتفالات الأخرى ليصنعوا مشهدًا لجذب السياح. هيئتهم رثة مزرية، يتسمون بطبع جشع، ويرى فيهم البدو، ربما بسبب أصولهم الوثنية، «الملعونين أربعين عامًا».

علينا الانفصال تمامًا عن حضارتنا لنعتنق حضارة الآخر، وعلاوة على ذلك، علينا أن نتخطى مسألة القبول الروحاني، ليس علينا تعليمهم أو «ترقيتهم»، بل دراستهم دون إجحاف، وأن نتعاطف معهم، مثلما فعل أمثال بوركهارت، وموزيل، وداوتي، وأويتنج.

حين يصلهم ضيف يستقبلونه بالضيافة التي استقبل بها إبراهيم ضيفيه. سُيخبز الكعك على الكانون، ويُذبح خروف أو حمل، ويُقدم للضيف لبن وهو الحليب الرائب. إذا جاء الضيف في موسم الجفاف، حيث يعزّ حليب الماعز والنعاج، يُقدم له حليب النوق اللذيذ والمنعش، ولكن لا يمكن صناعة اللبن من حليب الجمال. حتى وإن عُرف أن الضيف فارٍ من العدالة، أو لاجئ من قبيلة غريبة، يكفيه أن يرقد على مقربة من أحبال خيمة مُضيفه لتكفل له الأمان، ولا يمكن القبض عليه، لأن قوانين الضيافة مقدسة.

عندما نصل إلى محلة خيام البدو نذهب فورًا إلى خيمة الشيخ، أو رأس القبيلة، يميزها الرمح، رمح ربما يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدمًا، ويُغرز إلى جوار الخيمة. تُنظم قرية الخيام الصغيرة في صفوف متراصة يواجه بعضها بعضًا، أو على هيئة مربع فارغ، والماشية -إن لم تذهب إلى الرعي- تُحرس في المنتصف. الخيام المصنوعة من شعر الماعز الأسود تُشد إلى الأرض بأحبال مربوطة بأوتاد. أحجامهم تتفاوت لتُحدد عدد الأوتاد الكافية لدعم الخيمة. خيمة الشيخ قد تصل الأوتاد التي تدعمها إلى أربعة وعشرين وتدًا، مُقسمة إلى أربعة صفوف، تُقسم الخيمة إلى قسمين، وأحيانًا ثلاثة، قسم لرجال المنزل والثاني للناس، والآخر للماشية التي تحتاج إلى عناية خاصة. قد تُربط فرس رب المنزل المفضلة إلى أحد أوتاد الخيمة، أو تُترك حرة، هائمة تلتقط الفتات.

بغض الطرف عن شيء من خشونة المحيط -ولا يجب قياس الأمر بالنظر إلى الطقس المختلف وكذلك العادات- هناك درجة من الرفاهية. ثمة سجّاد ووسائد يغار أي فنان من ألّا يملكه في مرسمه الخاص، الحشية على الأغلب مُغطاة بحرير فاخر، والنساء يرتدين «زينة رثّانة» منذ زمن طويل، أثوابهن مُصممة لتستعرض الطبقة التي ينتمين لها التي تفرقهن عن طبقة الزُراع الكادحة.

تتنوع أشكال الترفيه إذا استقرت المحلة في إحدى الواحات، نجد فواكه حسب الموسم وخضراوات ومناخًا عامًا يوحي بالرخاء. يمكن التمادي لتفسير غموض تيه بني إسرائيل «أربعين عامًا»، تمامًا مثل البدو، على الأرجح مكثت القبائل العبرانية في كُل واحدة حتى نبضت مواردها وأنهم زرعوا الحبوب كُل عام، ومكثوا حتى تنضج، تمامًا كما تفعل القبائل في الصحراء في يومنا هذا.

ربة منزل من الفلاحات.

تغربل الذرة ثم تطحنه بين حجرين مسطحين قبل خبزه.

مثلهم كمثل بني إسرائيل، في السابق نُصبت خيمة خاصة للطقوس الدينية، لكنهم لا يملكون مكانًا للعبادة. دينهم بالطبع قائم على مبادئ بسيطة، وفي بعض الحالات يبدأ وينتهي بأسس عقيدتهم: «لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله.» مع ذلك، يُشعر بعرفان لِمَا صنعه إخوة الصحراء حيث استئصلوا الوثنية البغيضة، ويتشاركون مع بنو إسرائيل في آية «الرب إلهنا رب واحد.»(46)

ثمة بالطبع عشائر مسيحية -وهم أجزاء من القبائل- تتفانى في الاحتفال بالأعياد، كعيد الميلاد وعيد الفصح، في مدينة مادبا المسيحية، وهي إحدى المستعمرات في الكرك ويمكن النظر إليها بصفتها عاصمة الصحراء. أغلب سكانها يتعاملون بود مع البدو وبينهم علاقات متواترة. تقع هذه المدينة على تلال شرقي البحر الميت، وهي آخر الأماكن في المقاطعة التي قبلت الحكم التركي ولهذا السبب هناك حامية تركية لا تزال قائمة في المدينة، كما يسري طقسًا من المدنية المُشجعِة فيها. في وقت سابق ضمت بين أراضيها مقرًا لإرسالية بريطانية. في قديم الزمان كان هذا المقر أسقفية، ونجد حتى الآن أديرة تابعة للكنيستين اليونانية واللاتينية، وكذلك كنائس ومستوصفات ومدارس.

للبدو نظم أخلاقية لا تختلف عن بساطة عقيدتهم، بداية من حسن ضيافتهم وحسن نواياهم وصولًا إلى أصدقائهم وحلفائهم كما سبق وذكرنا. أضف إلى ذلك أنهم مثال حسن في احترام النساء. يقص بالدنسبرجر، وربما هو أكبر سلطة حية في حياة البرية، أنه لم يلتقِ طوال تجربته في فلسطين رجلًا بدويًا متزوجًا بأكثر من سيدة، وسلوك الطلاق الذي لا يخلو من يومياتنا مجهول لهم. في المناسبات النادرة التي يُثبت فيها أن امرأة فقدت عذريتها يقع عقاب قاس. من أوقعت نفسها في فخ العار تُرسل إلى الموت بتفاصيل فظيعة وعلى يد أقرب أقربائها، إن فشلوا في قتلها توصم القبيلة كلها بالعار، ويخسرون جميعًا حقوقهم المدنية، ويعجزون عن تزويج بناتهم.

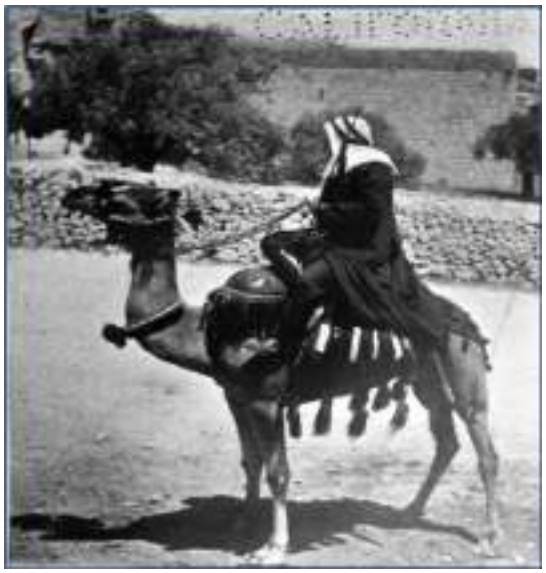

موظف حكومي.

على الأرجح جامع ضرائب عائد من إحدى زياراته إلى القرى. يرتدي ثوبًا بدويًا مناسبًا للسفر.

إزالة العقبات الكثيرة أمام النساء العربيات يعود إلى المبادئ الأخلاقية الرفيعة التي قدّمها محمد، فهو مَن وضع حدًا لوأد الأطفال من النساء، وساوى بين كُل المؤمنين، وهذا بالتبعية قضى على أغلب شروط العبودية.

يلعب الحب دورًا هامًا في زيجات الصحراء، ويُذكر أن النساء غير منعزلات كما في المدن. حين يرغب شابان في الزواج، تُطلب العروس من أبيها، وإن بدا الطلب مناسبًا -يوضع في الحسبان المكانة والعائلة وكذلك ممتلكاته- فسيُجيب الأب على الأغلب قائلًا: «لو آلفته روحها، وآنست لها روحه، فلا يحق لي أن أفصل بين روحين.»

يُراعي الرجال نساءهم، وفي الترحال تجلس النساء على ظهور الجمال، فهن يمارسن أعمال شاقة في المحلة لأن شئون ترتيب المنزل وطهي الطعام تقع على عاتقهن. ترتيبات الزواج تتم نظير قطيع صغير من الماشية، إلّا أن ابنة الشيخ يُدفع في مهرها عدد من الجمال. مهر العذراء ضعف مهر الأرملة، أو المطلقة، إلّا أنه -كما سبق وذكرنا- الطلاق شحيح في هذه الأنحاء، مقارنة بنا. حين يتعدى رجل على امرأة، وإن عفت عنه، عليه دفع «نظير عذريتها»، وهو ما يُعادل فدية قتل رجل. إن اشتهى رجل زوجة جاره يطلبها منه -نظير اتفاق- ومن المحتمل، إن قبلت السيدة، أن يُعقد اتفاق ويتم الطلاق. ويُصبح الزوج الجديد مسئولًا عن سداد ما دفعه السابق من «مهر» وكذلك -كما في حالتنا عند انتهاك الوعود- تعويض نظير جرح مشاعر الزوج الأول. هناك كثير من القصص عن الحب من طرف واحد التي حطمت قلوب البدو ومنعتهم من تحقيق منيتهم.

أحيانًا ترغب الزوجة، لراحتها الشخصية، في ترك الزوج والعودة إلى قبيلتها، احتمال يمكنها نيله. وقت الاتفاق على المهر توضع غرامة -عادة ضعف قيمة المهر- يُتفق ويُقسم عليها في حضور شهود، تُدفع هذه الغرامة في حالة عودتها إلى منزلها. ولأن هذا ربما يقود الزوج إلى إساءة معاملتها يُضيف الأب شرطًا: «في حالة -لا سمح الله- أن أسأت معاملة ابنتي، سأعيدها إليّ، وستعود أنتَ خاوي الوفاض.»

تضع عادات الصحراء أيضًا أحكامًا في حالة وقوع نزوة أو تجبر أحد الأبوين، حتى لا تنضب عين الحب الحقيقية. تطلب عائلة الرجل من عائلة الفتاة عقد الزواج، مرة واثنين وثلاثة، وفي كُل مرة تُرفع قيمة العرض. إن استمر رفض الطلب، يُجدد ولكن مع إضافة إغراءات كخروف أو اثنين، أو جمل، أو مُهر. حين تُرفض كُل المغريات تنتقل المسألة إلى يد الثنائي الشاب ويُعد الأب هاجرًا لكل تجهيزات العروس.

تُقام الأفراح في احتفالية كبيرة تستمر عدة أيام. تُقدم الهدايا وتُؤدى رقصات وتستمر الأغاني والأهازيج طوال الليل، تُزف العروس على ظهر جمل، وتتقبل التهاني من صديقاتها فتتلقاها بتواضع تقليدي يحط من قدر عريسها بدرجة بعيدة عن التهذب. تنتهي الاحتفالات فجأة، وفي لحظة بعينها تهرب العروس هروبًا متفقًا عليه إلى قلب الصحراء. على الزوج ملاحقتها، ولستة أيام على الأقل يعرف وحده أين تختبئ، بعض القبائل تمتد فيها هذه المدة إلى نصف سنة. على الزوج في هذا الوقت أن يُهيئ لها راحتها بتهيئة خيمة جديدة بفرش مناسب وتحوي كُل احتياجاتها. عند عودته إلى محلة الخيام تتجدد البهجة.

يتميز البدو عادةً بمظهر جذاب، وقامة طويلة ورشيقة، ورءوس صغيرة منضبطة فوق أكتافهم. بشرتهم شديدة السُمرة بسبب تعرضهم الدائم لشمس الصحراء، والنساء مشوهات نوعًا ما -في نظرنا- بسبب عادة وشمهن التي تطول شفاههن وذقونهن. سلوكياتهم هادئة ومهيبة، لبقين مع مَن يعاملهم بلباقة مماثلة، لكن سريعو الجفاء، ومختلفون تمامًا عن الفلاحين الثرثارين الرُعناء، ينظر البدوي للفلاح نظرة طبقة مختلفة تمامًا عن طبقته، ومنهم لا يفكرون أبدًا في الزواج. التواصل مع البدو وحده ما يتيح لنا الاتصال بالعادات وطبائع الحياة في عصور الكتاب المقدس البعيدة.

غرفة الضيوف في خيمة بدوية.

قوانين الضيافة مقدسة في الصحراء. يُعامل الضيف باللباقة نفسها التي عامل بها إبراهيم ضيفيه في الماضي. حتى إن كان هذا الضيف فارًا من العدالة في وسعه أن يستلقي إلى جوار أحد أحبال الخيمة فتُمنح له حماية صاحبها.

محلة خيام البدو.

صورة توضح ملامح برية يهودا.

الفصل الرابع

حياة القرية

تطرح أسماء القرى في فلسطين صورًا حية في ذهن كُل مَن ينتمي للأمة المسيحية. يُفرِّق الإنجيل بين المدن والقرى وفقًا لسؤال إذا كانت محصنة أم لا. «لكِنَّ بُيُوتَ الْقُرَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا سُورٌ حَوْلَهَا، فَمَعَ حُقُولِ الأَرْضِ تُحْسَبُ،»(47) كما ذُكر في سفر اللاويين. هذا يُعضد واقع أننا نعثر على القرى مختبئة بعيدًا عن الأنظار في الوديان أو بين طيات التلال، بينما الأماكن الأكبر تقع على تلال تسمح للداني أن يراها في الأفق.
عدد من الأماكن التي تقع تحت تصنيف القرى حاليًا، ربما صُنفت مدنًا في العصور القديمة، بينما مدن أخرى زادت أهمية مثل بيت لحم والرامة (الرملة) والناصرة.

أمَّا أسماء مثل عين دور وتل دوثان(48) ونين وقانا وبيت إيل، فلم تتغير على عكس قرى أخرى تغيرت أسماؤها أو تبدلت لأسباب لغوية أو سُكّانية. فمثلًا تُعرف يعاريم اليوم باسمها العربي أبو غوش، وعَمواس تُعرف باسم قُبيبة إلا أن القليل يُشكك في هوية الاسم العربية. شكيم اليوم هي نابلس، وحبرون هي الخليل ومعناها مدينة صديق الرب. بيت عِنيا أصبحت العيزرية، السامرة هي سبسطية. يحافظ السكان المسيحيون في بعض الحالات على تداول الاسم المرتبط بالعقيدة، مثل قبيبة، أما في حالات أخرى مثل بيت عِنيا وحبرون فالاسم العربي هو ما يحفظ التقاليد المقدسة.

ثمة أسماء أخرى لها دلالة تاريخية مثل اللطرون، من لادرون(49)، ويُقال إن المكان هو مسقط رأس اللص اللمين الذي يُعرف باسم ديماس. أما اللص اليسار، في سياق متصل، يرتبط بقرية لفتا بالقرب من أورشليم وهي تحمل سمعة غير حسنة حتى يومنا هذا. أما القرية التي تقع على «ريف التل» فتشتهر بأنها ملجأ القديسة إليزابيث، وكذلك مسقط رأس المعمدان، وتُعرف القرية عند المسيحيين باسم قرية القديس يوحنا، بينما المسلمون يُطلقون عليها اسم عين كريم أي «بئر الكريم.»

هناك ملامح مشتركة بين كُل القرى أهمها البئر فهو مصدر هام للوجود. تجري أنهار قليلة في أرض فلسطين، أما الجداول الجبلية فتجف تمامًا أكثر من نصف العام. يمكن العثور على أطلال خزّان ماء في كُل حي من أحياء القرى تقريبًا، أطلال من الأيام الخوالي، وفي الإمكان إصلاحه بقليل من النفقات. العقبة أن السكان الحاليين، على الأغلب، مبذرون وكسالى ومُحبطون. البئر قلب الحياة في القرية. تذهب النساء إليها ويأتين طوال النهار، لا سيما صباحًا ومساءً، ليملئن جرار المياه الموضوعة برشاقة فوق رؤوسهن أو على أكتافهن، للجرار شكل جميل، ملونة بدرجات الرمادي أو البني لتعاكس اللون الأبيض أو الأزرق لثياب النسوة.

هذه الجرار تُستخدم لأغراض منزلية. في حالة الحاجة إلى كميات مياه أكبر، فهي مهمة الرجال إحضارها في قِرَب مصنوعة من جلد الماعز أو الخراف. تُصنع هذه القِرَب في الخليل. حين قال المسيح لتلاميذه: «إِذَا دَخَلْتُمَا الْمَدِينَةَ يَسْتَقْبِلُكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ»(50) قَدَم لهم إرشادات واضحة، لأن مشهد رجل يحمل المياه في أي شيء عدا القِربة هو مشهد غير مألوف في الشرق.

سيدة تحمل جرة ماء.

لاحظ الضغط الهائل المُعلق فوق رأسها.

البئر تُمثل مغسلة القرية، يمكن أن ترى الازدحام حول البئر في أي ساعة من النهار. بعد نقع الملابس تُفرد وتُضرب بأحجار. لا تُستخدم المياه الساخنة وكذلك الصابون وهي قاعدة لا جدال فيها، وطريقة معالجة الثياب بطولية. الثياب المغزولة منزليًا، والبسيطة، وكذلك الصبغات منزلية الصنع، الزرقاء والخضراء والحمراء تحديدًا، لا تحافظ على رونقها فحسب بل يتوارث الأجيال ارتداءها. فشل الملبس الذي يعود تاريخه لقرون غير معلومة في مواكبة الصبغات الصناعية والأقطان الأوروبية التي وفرها تقدم «التعليم». واعتلى عرش الأزياء المشدات غير المهندمة. تحولت الثياب الزاخرة بالزخارف إلى أسمال بائسة وفُقدت الأناقة والرونق. وتحولت النساء اللائي ارتدين مثل راعوث وراحيل ومريم، والرجال الذين ارتدوا مثل يعقوب ويوسف والشاب صموئيل إلى رسومات كاريكاتور لآري وآريت(51).

الآن دعونا نحتفِ بحياة القرية حيث نجدها، فعجلة الحضارة غيّرت بيت لحم والناصرة والرملة وغيرهم، لكن هناك قرى كاملة مسلمة، أو قرى حيث بقيت المسيحية الأصلية التي ورّثها السيد وتلاميذه دون تدخل، وقُرى تُقيم احتفالات جميلة تشجع محبين الصور والألوان والضوء والموسيقى والمجازات من أطفال الشرق. وكُلها أماكن تقدم البهجة كما في الأيام التي سبقت حركة «التطور» التي بدأها الصليبيون.

يختلف القروي اختلافًا أساسيًا عن سُكان الصحراء. تضم القُرى سكانًا من أجناس مُختلطة، وسمات عرقية مُختلفة شكلها. ليس من المجدي إنكار خليط الدماء المسمى مجازًا «صليبيًّا» حتى وإن كان أغلبه أكثر حداثة، ولكنه جنس من أعراق مختلفة جاءت من دول البحر المتوسط، وربما امتدت لدول الشمال. وهناك كذلك دماء العرب الغازين، ودماء السكان الأقدم للبلاد، ومنهم لا يتزوج العربي الحقيقي، هُناك كذلك القبط والمسلمون القادمون من مصر الذين استقروا في برية شارون حين غزا إبراهيم باشا الشام في أوائل العصر الفيكتوري، نجد كذلك أعراق تُركمانية ومن بلاد ما بين النهرين والكُرد وهُم يشكلون العرق المخُتلط المعروف الآن باسم «الشامي»، ويفخر البدو بانعزالهم عن هذا العرق.

منزل أحد السكان الأصليين في تل الجزر.

تل الجزر واحدة من مدن فلسطين العتيقة. اكتُشفت المدينة الأثرية على يد الفرنسي كلارمون جانو، وبدأت أعمال التنقيب بمساعدة صندوق فلسطين للتنقيب.

هم أناس لُطفاء، رُعناء، يتميزون بالبزخ وتقلب المزاج والتسرع، يُعادون بسرعة، ويُصادقون بالسرعة ذاتها، عادةً كُرماء ولطفاء ومساعدون ولكن مرتابون ومحبون للمال ولا يبالون بالحقيقة. في قرى جبل لبنان، التي يسكنها غالبية مسيحية تتبع الكنائس القديمة، يقل التعرض للتأثير الحداثي، نجد الأحوال مُختلفة تمامًا لدرجة تجعلنا نعتبر هؤلاء القوم من عرقٍ آخر. هم أكثر كدحًا، يستحقون الثقة، وأكثر ذكاءً حتى لو كان الفلاح العادي ليس سريع البديهة. أغلبهم مسيحيون، ولكن هناك عدد لا بأس به من الدروز -طائفة مُحمدية- يتميزون كذلك بالرصانة والكدح. الحكومة المحلية من المسيحيين، ينتمون للكنيسة «اليونانية» وهي لا ترتبط بالضرورة بشعب اليونان، ولكنها تُميز طائفة شرقية تنتمي للكنيسة الكاثوليكية، مثلها كمثل استخدام «اللاتينية» أو «الإنجليكانية» للإشارة للطوائف الغربية.

يطمح اللبنانيون طموحات أكبر مما توفره لهم جبالهم، لذا يهاجرون بكثافة إلى مصر أو أمريكا. مع ذلك، هُم محبون لوطنهم ويعودون حين تتحسن أحوالهم. ندين لهم بأنواع الحرير الجميلة والتطريز الذي نُسميه أحيانًا «ليبرتي» ويُعرف أيضًا بمنتجات دمشق. يُصنع الحرير بغزارة في مقاطعة لبنان حيث، في كُل قرية تقريبًا، يُسمع أزيز العربات المجرورة، وتُغطي خضرة حدائق التوت جوانب التلال. الحياكة والنسيج مِن سمات بيروت ودمشق.

كل الفلاحين في فلسطين هم أهل زراعة. يجلسون أغلب الوقت تحت ملكياتهم من كروم العنب أو أشجار التين. مع ذلك، بعضهم مستأجرون، وحتى ملاك الأرض أحيانًا يعملون لدى أهل المدينة أو البدو. يمارسون هذه المهنة بقواعد تعاونية محددة تُخضع الفلاح ليشارك في العمل ويُقدم الآخر الأرض أو على أقل القليل جزءًا من البذور.

النساء يعملن كما الرجال، ولا يرتدين الحجاب كما يتمتعن باستقلالية كبيرة. يتزوج الفلاح، وحده من بين المسلمين الآخرين، أكثر من زوج وذلك لأن المرأة العاملة لها قيمة مقدرة عند المزارعين. بدورها تشعر المرأة بقيمتها وتتوقع مهرًا يناسبها. تتزوج الفلاحة عادةً في سنٍ مبكرة، لكن من الشائع الآن أكثر من ذي قبل أن يتأخر زواجها أو ألّا تتزوج أبدًا لأنها قادرة على جني قوت يومها إما بالعمل في الزراعة وإما الخدمة في المنازل.

يكثر الطلب على النساء في بيت لحم وبيت جالا تحديدًا ليعملن ممرضات للأطفال لأنهن مُخلصات لعملهن، ولأن معظمهن نشأن في مدارس راهبات، وبالتالي تعاملن مع الأوروبيين، وهم أكثر نظافة ونظامًا من الأخريات في بعض القرى الأخرى. تضم المدينتان مدارس ألمانية ممتازة، كما يتحدث عدد كبير من الجيل النشء الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية.

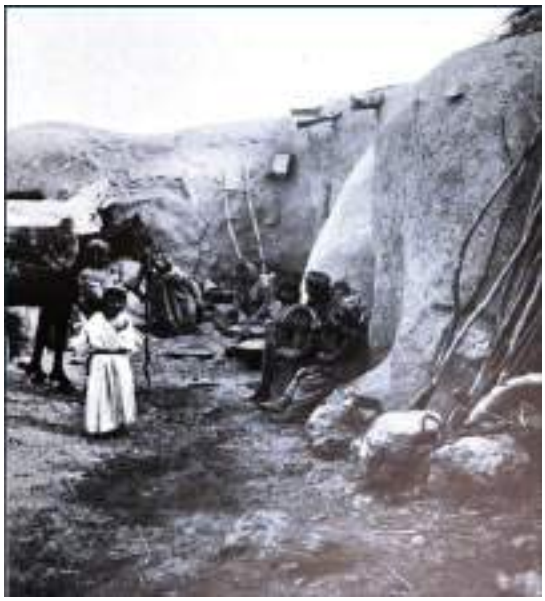

يزرعيل(52).

منزل للسكان الأصليين بقرية في يهودا. تُمارس الحياة المنزلية في الهواء الطلق، ويُستخدم الكوخ للنوم فقط في الطقس البارد.
يزرعيل هي مسقط رأس نابوت صاحب الكرم، وكذلك مسقط رأس أخاب.(53)

تضم سِلوام، التي تُعرف الآن باسم سِلوان، وهي قرية مُحمدية، نساء يهتممن بزراعة الحدائق ويجنين مبالغ جيدة من زراعة الخَضْراوات المُستخدمة في صناعة السلطة، والخرشوف المقدسي، وزهور القنبيط الضخمة، ويعرضهن في السوق في أورشليم. لا حدود لمقدرتهن ومثلهن كمثل كثير من النساء المحمديات يملكن سلطة على أزواجهن. التقينا امرأة قصت علينا بحماسة عن مرحلة ما من زواجها حين تمرد زوجها وطلقها سريعًا، ثم أصابه الندم وتمنى أن يُصلح الخلاف ويعود لزوجه. وافقت الزوجة لكنها أصرت عليه أن يدفع مهرها مجددًا كاملًا لتُثبت أنها ذات قيمة عالية. من الجلي أنها استحقت! الفلاحة أم ممتازة، وبمعرفتي للبلاد التي تزيد عن عشر سنوات لم يقابلني أي حالة واضحة لأم تُعنف أبناءها، وقد سألني عدد من المسلمين برعب واضح وشيء من التشكيك عن مدى حقيقة تأسيس جمعية في إنجلترا لحماية الأطفال من والديهم! من المحتمل أن منع الخمور بين المحمديين له صلة بالأمر. يُرى أحيانًا الرجل المسيحي يرتكب فظائع بسبب الخمور، لكن لم أسمع قط عن امرأة أذنبت بسببه. أضف إلى ذلك أنهم يبتعدون عن الخمور الأوروبي، ولا يتناولون سوى النبيذ الخالص والبراندي المُصنَّع في البلاد، مما يحد من عواقب السُكر. أما الشراب المعتاد بين الطبقات الدُنيا فهو العرق، وهو يُصنع من ثمالة أحواض النبيذ ويُنكه باليانسون.

تتمتع الفلاحة عادةً بلياقة بدنية جيدة، والفلاحات في مناطق محددة لهن مظهر جذاب. عيون كبيرة واسعة، فم صغير، وخصلات شعر مُرسلة، ملامح تُقرض فيها الشعر العربي بشغف خاصة في بيت لحم والناصرة. كما تملك الفلاحة مؤخرة كبيرة وأرداف مُكتنزة تُزيدها جلسة القرفصاء لسنوات، وهي نقاط لا تُقدرها العين الغربية.

أما الرجال فلهم قوة غير عادية وقدرتهم على رفع الأحمال مُدهشة مقارنة بالأوروبي. رفع عامل واحد، صخرة حجرية ضخمة، تُمثل علامة في مقاطعة أورشليم، فوق قمة مبنى مدرسة راتسبون المكون من ثلاثة طوابق. ربما يُصادفك أحيانًا يحمل بيانو ضخمًا، عارضة حديدية تُستخدم في البناء! النساء كذلك لديهن قوة جسدية، وأتساءل بفضول عن حميتهن الغذائية. يتناولن أرزًا بكمية كبيرة، وخضراوات -خاصة من فصيلة الخيار- ومسكرات، وخبز الحبة الكاملة المحلي غير المُخمر والمخبوز على صخرة مُسطحة كما في زمن الإنجيل. المنبه الوحيد لهن هو القهوة. يُدخن الرجال السجائر -حين يستطيعون الحصول

عليها- أو الأرجيلة، يُقال إنها أكثر أنواع التدخين صحية، إلا إنها مُرهقة وغير مناسبة للمبتدئين. يتناولون وجبتهم الأساسية في الليل، واللحم يدخل إلى وجباتهم في المناسبات والاحتفالات.

من جهة أخرى، لا يعيشون طويلًا، ومعظمهم يموتون بسبب مرض قصير، مما يُشير إلى افتقارهم إلى قوة مقاومة المرض.

تُصنع ملابسهم كلها من القطن، عدا الثوب الخارجي. ترتدي النساء ثوبًا صوفيًا خشنًا أشبه بالدراجيه الأوروبي، أما الرجال فيرتدون ثوبًا مغزولًا من وبر الجمال أو الماعز، وفي بعض المقاطعات يُغزل من فرو الخراف. هذا الثوب الخارجي الثقيل يُرتدى في الخارج طوال العام وقاية من الحر والبرد. الرأس يُغطى دومًا، فالنساء يرتدين غطاء رأس أسفل الحجاب قد يصل وزنه بفضل الزخارف إلى ثماني أو تسع أونصات. تتشبث النساء بهذا الغطاء نهارًا وليلًا ويؤكدن أن خلعه يسبب لهن صداعًا. يغطي الفلاح رأسه بحرص مساوٍ. غالبًا ما يحلق رأسه ويُغطيه بغطاء قُطني، وفوقه يضع الطربوش الأحمر ولكنه طربوش يختلف عن الطربوش التركي الذي ترتديه العناصر التركية، وفوق الطربوش يربط منديلًا قطنيًّا ملونًا. هذه التفاصيل تمنح رأسه مظهرًا أكبر من حجمه الطبيعي، وتختلف عن الغطاء القماشي الطويل الذي يضعه البدوي على رأسه، وكذلك عدد من الفلاحين. مع ذلك، يتميز هذا الغطاء بشيء من الثقل بسبب الحبل الثخين المصنوع من وبر الماعز، سُمكه يُعادل سُمك رسغ رجل، يُربط مرتين فوق غطاء الرأس، وكذلك ذيول الغطاء التي تتدلى إلى الخلف.

فتيات من قرية مسيحية.

أولئك الفتيات يعملن في الحقول ورعاة للخراف ومربيات للماعز.

الفصل الخامس

حياة المدينة

نبع الماء في قانا في الجليل.

تملأ النساء جرار المياه الضخمة بمناسبة حفل زفاف.

سبق وعرفنا أن الأسوار والتحصينات هو الفرق القديم بين المدينة والقرية. أسوار أورشليم التي أُعيد بناؤها لآخر مرة على يد الحاكم التركي، سليمان العظيم، في عصر الملكة إليزابيث، تحتفظ بكمالها لدرجة كبيرة. وقع آخر هدم في السور بمناسبة زيارة الإمبراطور الألماني، وذلك لتوفير مساحة أكبر للاستقبال الاحتفالي. جاء الاستقبال احتفاءً بكل ما قدمه رعاياه من خدمات في التجارة والتعليم في هذه المدينة، وكذلك في زخرفة مباني المستشفيات والكنائس والمدارس. أما أسوار حيفا التي تقع عند أقدام جبل الكرمل فأحدث من أسوار أورشليم، ونُقلت المدينة من موقعها السابق بعد زمن الصليبيين. أما أسوار طبرية فيعود تاريخها إلى تاريخ بناء المدينة في عصر هيرودس، وأسوار يافا، التي هدمها نابوليون، دُمرت وأُعيد بناؤها عدة مرات لدرجة تُعجِّز عن تحديد الفترة التي بُنيت فيها أول مرة. عروجًا على التحصينات العتيقة، على المرء أن ينظر إلى مدن مثل غزة حيث نجد العمارة القديمة لا تزال قائمة ويمكن ملاحظة أساساتها. أظهرت أعمال التنقيب الأسوار العتيقة لمدن كأريحا ومِجدو وتعنك وتل الجزر والسامرة، وغيرها، ولكنهم جميعًا مهجورون ومهملون، لكن غزة مدينة مزدهرة في الصحراء الجنوبية، عبرها تمر كمية هائلة من صادرات الويسكي الإسكتلندي!

أثر العنصر الأوروبي في حياة السكان في المدن الكبرى تأثيرًا كبيرًا، وتختلف اختلافًا تامًا عن المدن التي يمكن تسميتها «المدن الأصلية» مثل الرملة (الرامة)، وهكا، وطبرية، وصفد. هناك أماكن يزورها الأوروبيون ولكن لا يقيم فيها جالية غربية، مثل الناصرة وبيت لحم والخليل وكلهم -لحسن الحظ- يحتفظون بشيء من سماتها المميزة. أماكن قليلة تشهد إقبالًا كبيرًا مثل بيت لحم، وأكثر من ذلك تعج المدينة بالمدارس والمستشفيات والأديرة التي تدعمهم، إلّا أن سكانها يحتفظون بزيهم المحلي الجميل ربما لأن المدينة تخلو من وجود الموظفين الأوروبيون وكذلك الفنادق. يمكن التجول في «حقل بوعز» وهو على ثقة بأنه سيلاقي حصادين أمثال مَن وقف راث بينهم في «حقل الذرة الغريب». رعاة الغنم في «حقل الرعاة» يقودون الخراف إلى الكهف ليلًا، مثلما تجهمت قلعة هيرودس في وجه القرية النائمة. على الجهة الأخرى من التلال، تحديدًا في الخليل، في وسعك أن تعثر على كروم أشكول الهائلة، مزارع كروم يحرثها فتيان يرتدون معاطف ملونة كالتي أهداها يعقوب إلى ابنه المفضل يوسف في البقعة نفسها منذ زمن طويل مضى، مع ذلك في أماكن أخرى ألوان الثوب الخارجي محايدة ومن درجات لون واحد هو لون وبر الماعز أو فرو الخروف المصنوع منه الثوب.

سمة رئيسة في كُل مدينة، تمامًا مثل كُل قرية، هي المنارة، أعداد المنارات تتناسب مع حجم المكان حيث يُصلي السكان. على الأرجح نجد في المدن سوقًا، وبالتأكيد نافورة تخدم أغراض التطهر الديني، إلى جانب الوظيفة التي تؤديها الآبار في الأماكن الأخرى، والتطهر ضرورة أساسية للعبادة. الطراز المعماري للمنازل الصغيرة يُشبه الصناديق كالتي رأيناها في القرى، لكن دون مدخنة، فالقاعدة أن

الأفران تقع خارج المنزل. مع ذلك نجد -حتى في أصغر المدن- مباني كثيرة مكونة من طابقين، مُعبدة الأسقف أو -وأسفاه- لها أسقف من حديد مجعد، ولا تخلو من النوافذ الكثيرة التي تُمثل متعة البناء المحلي.

المدينة التي قوامها الأساسي من المسلمين -المميزين عن المسيحي واليهودي- تحتفظ بفرديتها مدة أطول من المدن التي يتصاعد فيها التأثير المسيحي. ربما يُرجئ الأمر جزئيًا إلى قيود السفر التي فُرضت على المسلمين حتى وقت قريب وأعجزتهم عن مغادرة البلاد، بينما السكان المسيحيون -المعفيون من الخدمة العسكرية- لديهم، منذ مدة طويلة، ميل للهجرة خاصة نحو أمريكا الجنوبية وجنوب إفريقيا والولايات المتحدة.

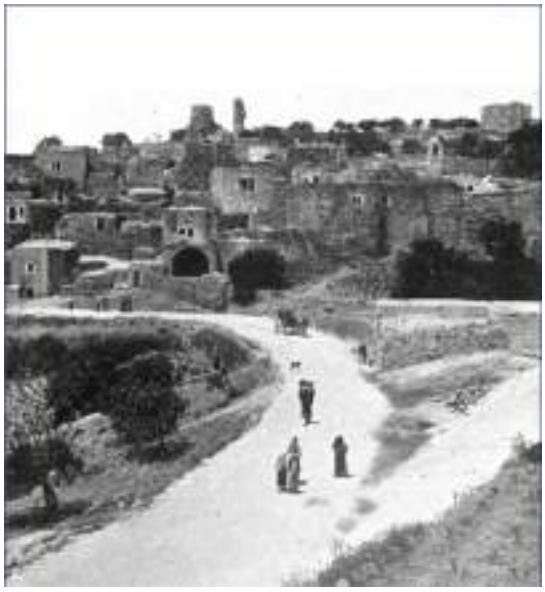

بيت عِنيا.

تظهر في الخلفية أطلال إحدى الأديرة اللعازرية(54). بُني الدير إلى جوار كهف للدفن تصر القصص التقليدية أنه مدفن اللعازر.

العائدون قدموا إلى ذويهم أشكالًا مختلفة من الحياة، وكذلك الوسيلة لمعايشة هذا النمط. «إقامة غرفة الصالون» مثال على الطموح الذي نشأ عن استيراد عدد لا بأس به من قطع الأثاث الفيكتوري، وكذلك أدوات التجنيد، والسجاد «البروكسلي»، والثريات الزجاجية، والمزهريات ذات الرسومات التي أعادت إحياء الفترة الفيكتورية. قابلت مؤخرًا فلاحًا ثريًا تمادى خطوة أخرى، وبفخر كبير، أظهر لي سنه الذهبية (ملفوفة في ورقة)، وهو يشير إلى الفجوة التي صنعها إزالة ضرس من فمه لاستقبال السن. يكتسب المشرقي بالفطرة أسنانًا هائلة، إلّا إذا خدم لدى الأوروبيين وتناول خبزًا غير مغذٍ وخضراوات مغشوشة. لكن صديقي شاء ألّا يظهر وضيعًا أمام أخ له عاد مؤخرًا من أمريكا، لذا لم يكتفِ فحسب أن يتخلص من ثوب بلاده الرشيق، والبُسط المحلي والسجاد الذي لا مثيل لها، والمطرزات التي صنعتها جدات أجداده، وأدوات المطبخ البديعة المصنوعة من النحاس الأحمر والأصفر، لكنه شوَّه ملامحه المليحة ليضع نفسه على قدم سواء مع حضارة الغرب الأقصى!

نساء المدينة يشترين الذرة.

يجلب الفلاحون الذرة من القرى، الغالبية من موآب، وتبتاعها ربة المنزل المقتصدة لطحنها في المنزل.

الأسوأ من ذلك هو ذائقة الشامي، وذلك لعدم وضوح ضعف جودتها وضوحًا جليًّا، التي أجدها في كُل مدينة. القاعدة أن يتمتع هؤلاء الشوام بذائقة تشبه الفرنسية، تظهر في أوراق الحائط المنقوشة بالزهور، والساعات المطلية بالذهب، والمرايا، و«الأعمال المبهرجة»، والصور المطبوعة بألوان حجرية، وطاولات الزينة، والجواهر التي تُجسد الترف الباهظ والدلالة على التباهي. هم للشرق القريب أكثر شبهًا بالأورو أسيوي البعيد. أغلبهم من رجال التجارة وضباط القنصليات، أقصى طموحاتهم أن يرتقوا إلى درجة الأوروبيين. عادة ما يتسم صاحب الدم اليوناني أو الإيطالي أو البولندي أو الفرنسي بملامح جميلة ولون بشرة مميز، لكن قدراتهم الجسدية ضعيفة، ومشيتهم وأصواتهم لا يمكن الخلط بينها وبين جنس آخر. يتعلمون بالضرورة في الأديرة -اليونانية أو اللاتينية- ويتحدثون الفرنسية بلكنة طريفة تكشف عاميتهم العربية.

ليس مسموحًا للأوروبيين -وهذه قاعدة- زيارة البيوت التي يملكها مَن يمكننا وصفهم بالطبقة العليا المسلمة، والأمر يُفسر بدرجة ما من الأخطاء الجسيمة عن الموضوع التي انتقلت بطريقة ما لتصبح تاريخًا! الرجال كلهم بالطبع مستثنون من دخول المنزل، عدا القسم الخارجي الذي يخص سيد البيت، ويُرجح أن تتدخل النسوة في الآراء الدينية لقاطني المنزل. قليلون ممَن في وسعهم دخول البيت يستطيعون الحديث بلغته، ومن هنا تتشوه الحقائق بطريقة غير منطقية وسخيفة.

لا يودع المسلم أمواله في البنوك، وعادة ما يستثمرها في البناء. المنازل كبيرة، والغرف واسعة، والقاعدة العامة أن المنزل يتكون من عدة غرف بُنيت حول ساحة مركزية ضخمة تُعرف باسم «الليوان»(55)، وهي غرفة الجلوس العامة لكُل قاطني المنزل. هُناك أيضًا الحريم، أو الغرفة الخاصة، وإذا المنزل مبني من طابقين، تقع غرفة الحريم في الطابق الأعلى. الطابق الأرضي يضم غرف رجال المنزل، وهي الغرف الوحيدة التي «تَطُل» على الشارع. أما في المنازل القديمة، التي بُنيت من طابق واحد، فتقع غرف الرجال في جُزء أشبه بملحق للساحة المركزية. الشعور بالانتماء للقبيلة هو إحساس غامر بين المسلمين، شعورٌ ناجٍ من أزمنة الحل والترحال. عادة ما يضم البيت رب الأسرة وزوجه، ونادرًا ما يتزوج بأكثر من امرأة. يُقال إن السلطان نفسه له زوج واحدة، والخديوي تزوج الثانية منذ مدة قصيرة، وهي سيدة أوروبية. حين يتزوج أحد الأبناء، يجلب زوجته إلى المنزل، وتُبنى غرفة أو اثنتان. لا يُفرض على المرأة أبدًا أن تُعيل نفسها إذا وجد أي قريب ذكر على قيد الحياة، وربما يزداد عدد قاطني المنزل بإقامة أرملة، أو بنات، أو أخوات، أو خالات وعمات، أو بنات عمومة وخؤولة. حضور الخادمات شيء مُعتاد، وبقايا من نظام العبودية القديمة، ومنهن خادمات رفضن ترك العائلات التي نشأن وعِشن معهم لأجيال.

عرفت بيوتًا تضم أكثر من أربعين شخصًا من مختلف الأعمار. على الرغم مِن أن المرأة المسلمة، كما تقتضي التقاليد، لا تخرج من منزلها إلا بصحبة عائلية، فهي تُقابل يوميًا أشخاص أكثر مما نقابل نحن مالكات الحرية. وللمرأة المسلمة نصيبها من الحرية لأن المناخ يسمح لها بحياة خارج المنزل، ومن أهم مظاهر الحياة للمرأة المسلمة هو شم الهوا، أي في مفهومنا التنزُه.

نافورة عتيقة بجوار مسجد.

تُستخدم غالبًا من سكان المدينة المسيحيين غير القادرين على استغلال الآبار الهائلة التي تقع في داخل المنطقة المقدسة.

تتفق عائلات كثيرة -نساؤها وأطفالها- على اللقاء في بقعة لطيفة أسفل الأشجار ويقضون يومهم هناك. كما يقضون كثيرًا من الوقت في الزيارات حيث يتسلين بتبادل الحديث والموسيقى وتدخين السجائر، وتدخن النساء الأكبر سنًا الأراجيل خاصة في الشمال.

لا شك أنه ثمة جانب مظلم من الحياة. عدد كبير من الأجيال الكبيرة لا يستطيعون القراءة أو الكتابة، لكنهم على وعي بعجزهم، وتحرص الأجيال الناشئة على تحقيق الإنجازات. وحتى قبل أن يمنح التغيير في الحكومة الحرية لرعايا تركيا، كانت أعداد كبيرة من بنات طبقة النبلاء المسلمة يتلقين التعليم. منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وضعت مدرسة البنات في أورشليم تحت رعاية جمعية تُعرف باسم «المستعمرة الأمريكية» بعد أن كانت تحت رعاية البلدية، وقبلها بسنوات كانت البنات تُرسل إلى أديرة كثيرة ليتلقين تعليمهن.

الاختيار في كلتا الحالتين يقع بدافع ميول دينية، في نظر المسلم المسيحي يبقى مسيحيًا، بغض النظر عن العقيدة. ولكنهم وضعا في موقف الاختيار بين التعامل مع من يفهمون لغتهم واحتياجاتهم فهمًا تامًا، أو التعامل مع مَن يكنون لهم الاحترام لزيهم الديني وطبيعة عملية التعليم التي يقدمونها بما فيها الفنون المنزلية التي يسر العرب تعلمها. من الصفات الأساسية للسيدة المشرقية أنها طاهية بارعة، نظيفة ومرتبة في منزلها، وعازمة دومًا على تطوير قدراتها في الأعمال اليدوية، وتتميز بذوق فريد ومميز.

المحمديون عادة محبون للمنزل، ويكرسون أنفسهم بامتياز للأطفال، الآخرون بدورهم مدللون بالضرورة. ولكن جزءًا من كرامتهم الشخصية أن يخفوا محبتهم عن العامة. هذه الكرامة وهذا الحرص ينطبقان أيضًا على سيدات المنزل، وليس من الذوق أن تسأل امرأة رجلًا عن زوجه في العلن. لا يُسأل عن الست -أي السيدة- ولكن يُسأل عنها بمصطلح أعم وهو «العيلة».

من الواضح أن رغبة الرجال في تعليم أوسع يجب أن تؤدي إلى تقدم كبير في الفرص. تأسيس الكليتين الكبريين الجيزويت والأمريكية في بيروت خلال النصف الثاني من القرن الماضي كان بمثابة أعظم تقدم في مسار التعليم في الشام حيث سمحت الكليتين للمسلم والمسيحي على قدم سواء أن يتأهلا للوظائف العُليا. ويمكن الآن أن تعثر على أطباء متميزين أو محامين كُفء في كل بقاع البلد، وكذلك

أعداد هائلة من الكتبة والصحفيين والمعلمين الذين يعثرون على وظائف في مصر والقسطنطينية وحتى باريس وأمريكا. التزايد الكبير في أعداد الصحف العربية والدوريات العلمية العربية حول العالم وفَّر مخرجًا خفيًّا للعقل وقدرة على التأقلم مع الفئة الشابة في الشام، الفئة التي يمكن أن نقابلها الآن في أي جزء من العالم. كما هو متوقع، استيقظت روح وطنية جديدة بفضل انتشار الثقافة، والطبقات الأفضل تعلمًا يفتخرون الآن بقوميتهم وصفات جنسهم، بل واستيقظ لديهم إحساس بجمال فنونهم وحرفهم اليدوية.

بحر طبرية

تعود أسوار مدينة طبرية وأطلالها إلى عهد هيرودس.

في ريف الحدائق.

مشهد لشاطئ بحيرة طبرية وتظهر شجيرات الدفلى في مقدمة الصورة.

يكن المشرقي حبًا جمًا للزهور، خاصة الزهور ذات الروائح العذبة، ومسلمو الطبقة الثرية عادة ما يملكون بيتًا في الريف حيث يزرعون الحدائق، وتمكث السيدات والأطفال فيه خلال شهور الصيف. وللسبب نفسه هناك ميل الآن بين سكان المُدن -ولا سيما أورشليم ويافا ودمشق وبيروت- لامتلاك منازل جديدة خارج المدينة حيث هناك مساحة كافية لبناء منازل عصرية. هذا يقود نوعًا ما إلى تغيرات أخرى منها ظهور طراز جديد وفردي للحياة المنزلية، وكذلك تجنح العائلات الكبيرة للانفصال وعيش حياة أكثر خصوصية. مع ذلك، يبقى شعور الانتماء للقبيلة دون شك، وكثيرًا ما نجد منزل الأجداد محفوظًا ويُستخدم كنادٍ عائلي يلتقي فيه الرجال حين يذهبون إلى المدينة لشئون العمل.

تُثير ملامح بعض من هذه البيوت القديمة الاهتمام حيث لها واجهات منحوتة، وأرضيتها مُطعمة بالرخام، وداخلها جناح كامل مُخصص للحمام، بغرف للماء الساخن وأخرى للماء البارد، وكذلك أحواض قديمة لا بأس بها، غالبًا ما تُزخرف بزخارف اعتدنا وصفها زخارف «ساراسنية»(56) ولا يُعثر عليها الآن إلا في المساجد والحمامات القديمة.

السفر يمنح صاحبه سعة في المفاهيم، من النقاط المنيرة سماع النقد المشرقي بشأن نقص النظافة عند الأوروبي! «الفرنجي» لا يكتفي فقط بتناول الطعام دون غسل يديه، بل حين يفعل يغسلها في ماء متسخ! المشرقيون لا يفكرون أبدًا في وضع أياديهم داخل مياه راكدة في حوضٍ بل يصبون الماء الجاري

لغسلها. ربما تلتقي في القطار من أورشليم إلى يافا، على سبيل المثال، جماعةً من آباء فتيان يرتادون مدرسة مسيحية أوروبية ذاهبين إلى المدرسة لجلب أبنائهم إلى الحمام ليتأكدوا من نظافتهم من وقت إلى آخر بغض الطرف عن كُل معوقات محيطهم!

امتطاء الخيل، أو ركوب الحمير، أو الجمال هي الوسيلة القومية للحركة، لكن نجد في المدينة رجالًا يستخدمون العربات المؤجرة بكثافة. أما الباشا والقوات المسلحة فلديهم عربات خاصة وهم أتراك جلبوا هذه العادة من القسطنطينية.

نادرًا ما يُرى الأتراك في الأرض المقدسة، على الرغم من أنها مقاطعة تركية. هم بالضرورة لطفاء ومُهذبون، نساؤهم ورجالهم على حدٍ سواء لهم مظهر جذاب وملامح مليحة وحسنة. ترتدي السيدات ثيابًا باريسية راقية، ويُغطين أنفسهن بالعباءة نفسها خارج المنزل التي ترتديها سيدات الطبقة العاملة، ولكنها مصنوعة من قماش أبهظ ثمنًا، أما غطاء الوجه الأسود فمصنوع من القماش الغزِّي أو ما يُعرف بالشاش، على عكس النساء العربيات اللائي يضعن قماشًا موصليًا.

بائع خبز

يشتري الفتى خبز الحبة الكاملة غير مُخمر ومسطحًا كما في زمن الإنجيل.

الفصل السادس

الحياة الدينية

فترة الاستراحة المثالية.

ثُلة مجتمع خارج أحد المقاهي يحتسون القهوة ويدخنون الأرجيلة ويتبادلون ثرثرة ودودًا.

ادعاء أن «المحمدية سياسة وليست دينًا» به ذرة من حقيقة. يخضع العرب إلى الحاكم التركي على الرغم مِن استيائهم منه لمئة سبب مثل عرقه الآري، وأنه ينتمي لأمة أوروبية، وشعب له عقلية مختلفة عن العقلية العربية، ولكنه يخضع له بالضرورة لأن السلطان يمثل له حاكمه ورأس دينه. إن جاز التعبير، هو ليس الملك فحسب بل الزعيم الروحي للديانة.

من الصعب إقناع الفلسطيني، أيًا كان عرقه، ليدرك أن هذا ليس بالترتيب المُعتاد، وكثير من «الذين غيّروا عقيدتهم» تحطمت آمالهم حين اكتشفوا أن تعميدهم لم يُحررهم من القنصل البريطاني، وكذلك إرسالية الكنيسة. نسمع كثيرًا، وصحيح ما نسمعه، عن التوسع الكبير في إيمان المسلمين، حيث يعتنقه أعداد كبيرة في إفريقيا، وآسيا، وأمريكا، وحتى أوروبا. مع ذلك، هذا لا يتبعه عند كثير من الأمم أي تعقيدات في العقيدة. العقيدة المحمدية بسيطة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله.» إذا اعتنق كثيرون المحمدية، كما يُزعم، فإن هذا الاعتناق، خاصة الشعوب التي اعتنقتها في العصر الحديث، جاء لأسباب تجارية واجتماعية، وليست دينية.

المحمدي مُتدين، على الأقل ظاهريًا. ربما يختلف عمق دينه وصدقه من فرد لفرد، تمامًا مثل العقائد الأخرى. يمكنك أن ترى أناسًا ساجدين في ساعة الصلاة في الشوارع والمحال والمكاتب الحكومية بغض النظر عن الشهود. عرفت محاميًا -وجامع ضرائب- ينهض في منتصف اجتماع عمل، ويخلع ساعته، ويختار أن يُطفئ سيجارته قبل ساعة الصلاة. حين يأن موعد الصلاة يقول بتهذب: «اعذروني،» ويفرد معطفه على الأرض، ثم يركع بوجهه نحو الجنوب -نحو مكة- ليؤدي فرضه، وبعد يستأنف عمله بسلاسة كما يفعل موظف إنجليزي قطعت مكالمة هاتفية حديثه. على الأقل هم لا يخجلون من دينهم.

الأماكن العامة، مثل قاعات المحاكم والحمامات والمعاهد الخيرية تُزخرف بكلمات دينية تلائم وظيفة المبنى. آيات القرآن، التي بُنيت عليها شرائعه، عادة ما تتميز بجمال أخلاقي. إذا أضفنا أن المحمدي لا يرقى إلى مستوى دينه، فعلينا أيضًا أن نشير أنه ليس وحده من يخفق في ذلك. مع ذلك علينا أيضًا أن نلاحظ أن مسيرة الحضارة خلقت لديهم ميلًا للتشكيك في عقيدتهم، سواء كانت هذه المسيرة تؤثر في بعضهم في مسألة الأزياء، أو نتيجة لقراءتهم آداب الأمم الأخرى. ولأنهم لا يملكون عقيدة أخرى ليستبدلوا بها عقيدتهم، بعضهم يلجأ للإلحاد. يجب أن يمتلك المبشر الحديث، ليس فقط نيات تقية، ولكن معرفة شاملة بالنقد الأدبي والديني في ذلك الوقت وبلغات عدة، إذا سيحاول مجابهة شك المشرقي على أرض الواقع.

كما بين اليهود، فالمهام الدينية عند النساء في الإسلام هي مهام الحياة الخاصة، ومَن يؤدين أدوارًا في المسجد يبقين في غرف خاصة. النساء، كما الرجال، عادة ما يحملن مسبحة، يستخدمنها حتى في الفواصل الزمنية القصيرة خلال الحديث. أسماء الله: «الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، المؤمن» وهكذا حتى الرقم تسع وتسعين. الصلوات في مواعيد ثابتة ليست إلزامية على النساء كما على الرجال، كما لاحظتهن يصلين صلوات عفوية في لحظات الخطر أو الحماس أو الحاجة.

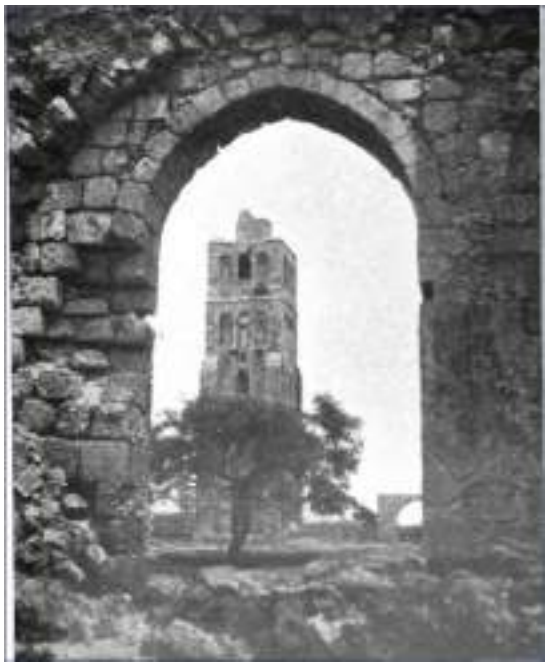

برج الشهداء الأربعين.

برج وأطلال كنيسة عتيقة عُثر عليها في الرملة. يُرجح أن هذه المدينة هي مدينة الرامة المذكورة في الإنجيل.

أتحدث فقط عن الطبقات العُليا، أما الفلاحون فليسوا فحسب أكثر جهلًا واختلاقًا، بل وأقل شعورًا وإحساسًا، يتشابهون كثيرًا مع الطبقات الدنيا من الطبقة العاملة في بلادنا. ربما لأن الأوروبيين يتعاملون مع الفلاحين أكثر من غيرهم تُفسِّر القصص الحالية عن دين النساء المحمديات وحياتهن الاجتماعية.

يُعثر على المهتمين بالخرافات في كل الطبقات، ولكن من الجهل وكذلك الجائر التعامل مع الخرافة على أنها جزء من العقيدة المحمدية. وإلّا لنقل حينها إن خرافات مرتفعات إسكتلندا جزء من تعاليم الكنيسة المشيخية(57). بالطبع هناك كثير في فلسطين يُذكّر بالخرافات في مرتفعات إسكتلندا. هناك مثلًا العادة نفسها التي تربط كُل شيء بإرادة الرب، وعادة تخصيص صلاة لكل مناسبة، وكذلك تلاوة الصلاة عند عبور عتبة المنزل، أو عند أخذ حفنة دقيق من السلة، أو عند النهوض والجلوس، أو عند الذهاب إلى السرير، أو عند سكب المياه، أو إشعال النيران، وهكذا دواليك. هناك آبار وبحيرات وأنهر مسكونة، هناك أماكن حسنة الطالع وأخرى سيئة الطالع، هناك في إسكتلندا الحوريات أما في فلسطين فهناك الجن، هناك آبار شافية، وهناك ألوان تُجلب الحظ وأخرى تطرده، وطُرق لتجنب الشر وأخرى لجلب الخير، وإن كانت هذه الطرق تختلف بين الثقافتين، فالاختلاف يرجع للوسيلة وليس للروحانية.

باب دمشق.

تُظهر أسوار المدينة الطراز المعماري للقرن السادس عشر. هذا الباب الأكثر إبهارًا من بين أبواب أورشليم.

حين يتقدم رجل لخطبة فتاة يستفسر إذا كان لديها عادة «الذكر» (أي ذكر اسم الرب) في أثناء تأدية مهامها المنزلية، لأن هذا وحده يؤمن مباركة المنزل. هذه الأشياء «ليست من الإيمان» (ليس مِن الدين) هكذا سيشرحون بحرص، تمامًا مثل شعب السلت الذي لن يعترف تحت أي ظرف أن جودة حليب البقر تحسنت بفضل تغير المرعى أو مساعدة الطبيب البيطري، بل بفضل الخيوط الملونة الملفوفة حول ذيل البقرة. كُلها صور من «التراث الشعبي» ودرجة التسامح معها تتفاوت وفقًا للعرق والمزاج وكذلك الحضارة.

يمكننا أن نعثر على خرافات شاملة في بلد كفلسطين لا يضم فحسب المسلم واليهودي والمسيحي، بل وتقريبًا كُل طوائف هذه الديانات الثلاث. ثمة خرافات يقبلها الجميع، وأخرى أقل تقديرًا. الأمهات المسلمات وكذلك المسيحيات، وليس اليهوديات، يملكن قطعًا من غار أو كهف في بيت لحم حيث يُقال إن قطرات من حليب العذراء تساقطت على الأرض. على صعيد آخر، تستخدم الأمهات اليهوديات تمائم بعينها لتشتت انتباه ليليث، زوجة آدم الأولى، وهذه التمائم لا تستخدمها الأخريات. لكن جميعهن متساويات في ثقتهن بأن كهفًا بعينه في جبل الكرمل له صلة بإيليا النبي وله فضائل شفائية.

نرى على منازل أو جدران منازل اليهودي والمحمدي قطعة مُشكَّلة على هيئة يد ومطلية عادة بالأزرق، لأن كلا العرقين يؤمن أنها توفر حماية للحياة والمنزل وتشير إلى أنهما بين يد الله. أما المسيحي والمحمدي فنجد عند مدخل منزلهما بيضة أو قطعة من حجر الشب، وتشير الأولى إلى مبدأ استمرارية الحياة، أما الأخرى فتحفظ من السوء كما يُحفظ الطعام بالملح.

خلال عيد انتقال العذراء في أغسطس، يعج منحدر جبل الزيتون وأعلى جزء من وادي النار(58) أكثر من ثمانية أيام بمظاهر مثيرة للاهتمام. تُقام مئات الخيام، وتُعسكر مئات العائلات المحمدية والمسيحية كذلك لزيارة بستان جثيماني(59)، وإليه يحضرون الأطفال والمرضى ليتمتعوا ببركة جسدية وروحية. يُخصص داخل المصلى مكانًا للمحمديين مثلهم كمثل كُل فرع من أفرع الكنيسة الشرقية وهو -كمثل غيره في فلسطين- مصلى داخل غار أو كهف، يُضاء في أوقات كتلك بمئات المصابيح الفضية والذهبية وبعضها بديع المظهر وغال القيمة.

ثمة أماكن لمسار الحج المسيحي في جميع أنحاء البلاد شهيرة للجميع، لكن أشهرهم أورشليم وبيت لحم والناصرة وبحيرة الجليل. للمسلمين كذلك أماكنهم المقدسة. مسجد أورشليم (في موقع المعبد) هو الأقدس، ويُعد الأهم بعد مكة. يقدس اليهود قبر موسى شرق نهر الأردن، وقبر رأوبين في بادية فلسطين. يبجل اليهود مدن أورشليم والخليل وطبريا وصفد.

محمديون يملئون جرار الماء في صحن المسجد في أورشليم.

حجيج عائدون من أورشليم.

مجموعة من الروس العائدين من الحج إلى أريحا ونهر الأردن.

واحدة من عواقب تنوع العقائد في فلسطين هي تعقيد التقويم السنوي. وضعت الإمبراطورية التركية -مثلنا- تقويمها وفقًا لأعيادها الدينية. تتبع السنة تقويمًا قمريًا، وتكتمل عند الثلاثمئة وأربع وخمسين، وتبدأ من سنة الهجرة. وعليه العام ١٩١٢ في تقويمنا يُعادله العام ١٣٣٠ في تقويمهم. الشهر الأول، محرم، يختلف عن تقويمنا الشمسي كُل عام بمقدار أحد عشر يومًا، لذلك خلال مئة عام سيتقدمون ثلاثة أعوام إضافية عنّا. يبدأ الشهر، وكذلك اليوم، عند مغيب الشمس. الشهر التاسع هو شهر الصوم من طلوع الفجر وحتى المغيب، ويليه عيد الأضحى.(60)

تتبع الكنيسة الشرقية التقويم اليوليوسي، واليهود لهم تقويم خاص.

لذلك ونحن نحتفل بعيد الميلاد عام ١٩١١، احتفلت به الكنائس الشرقية في الثاني عشر من ديسمبر، عدا القبط وحدهم الذين احتفلوا به في السادس عشر من الشهر. وفي الوقت نفسه كان التاريخ الإسلامي يوافق الخامس من محرم عام ١٣٣٠، والتاريخ اليهودي يوافق الرابع من طيبت عام ٥٦٧٢. لأن اليوم الشرقي يبدأ عند المساء، هناك اختلاف في مدة الأيام وفقًا لساعة غروب الشمس التي تختلف من يوم لآخر، لكن أقصى اختلاف لا يتجاوز خمس ساعات عن مواعيدنا.

لا يمكن أن تكتمل صورة الحياة في فلسطين دون إدراك بعض التنوع المثير للاهتمام لأنماط الإيمان المسيحي الذي جمعته مصلحة مشتركة في هذا المركز من الأمل المشترك.

الغالبية المسيحية بالتأكيد تتبع الكنائس الشرقية، الاختلافات محلية بشكل كبير، أما العقيدة -ولدرجة كبيرة الطقوس- متطابقة. الكنيسة الشامية، ربما هي أقدمهم، لا تزال تستخدم الآرامية في طقوسها

-اللغة التي تحدثها السيد المسيح نفسه- ومقرها الأساسي في الشمال، مقر صغير في أورشليم لكن له مطرانه. أما أقباط مصر والحبشيين والأرمنيين فلهم كنائسهم المستقلة في أورشليم.

كُلهم طوائف تقع تحت مظلة ما يُعرف بالكنيسة «الأرثوذكسية»، ويتبعها مئات الملايين، ولا سيما في أوروبا الشرقية وفلسطين، ويصومون وفقًا للمجالس المسكونية هم وستة ملايين آخرين يختلفون معهم في أمور أساسية في العقيدة. القوام الأساسي لهذه الكنيسة يُعرف لنا باسم «الكنائس الكاثوليكية الشرقية»، تختلف عن الكنيسة اللاتينية أو ما نسميه عادةً الرومان الكاثوليك. هناك عدد كبير منهم في الأرض المقدسة وتحديدًا في المدن. كما نجد عددًا معقولًا مِمَن يتبعون الكنائس الشرقية ولكن يحتفظون باحترام البابا ويتبعونه في عدة طقوس قديمة مثل استخدام اللغة والتناول والزواج الطقسي.

تضم الأرض المقدسة عددًا من «البروتستانت» وهم في جوهرهم لوثريون، وكذلك عددًا من الألمان «الماسونيون»، وكذلك أتباع الإرسالية المورافية(61). لا نجد كثيرًا من الأنجليكانيين، ومنهم عدد من اليهود المعرفون باسم «المسيحيين العبرانيين» وقلة منهم ينتمون للكنائس المسيحية القديمة. من المستحيل أن يتحول مسلم عن دينه، على الرغم من أن السكان المحليين مؤمنون بالفوائد المادية والمعنوية التي قدمها لهم الوافدون المبشرون. وتتمثل هذه الفوائد في عدد المستشفيات الهائل وكذلك المدارس والمعاهد التي أسهم في بنائها تقريبًا كُل أمة أوروبية.

الناصرة.

على المدى البعيد نرى أهداب التل الذي عليه استهزأ اليهود من المسيح.

يمكنني استعارة تعبير زانجويل(62) عن اليهود لوصف دولة فلسطين حيث «يُعطي فيها الثري دون وازع». إن زيادة الأعمال الخيرية أصبحت أكبر الآن بعد أن أصبح الناس أنفسهم أكثر احترامًا للذات، ونتيجة لذلك أصبح النظام الجديد أكثر استقلالية. على سبيل المثال، نجد في أورشليم مستشفى إنجليزية للمعتنقين الديانة المسيحية من اليهود، وكذلك مستشفيين فرنسيين كبيرين، وأربعة مستشفيات ألمانية مِنها المستشفى الوحيد لعلاج البرص، ومستوصفات مرتبطة باثني عشر ديرًا على الأقل. كما تذهب الممرضات إلى الفقراء في منازلهم. ثمة مستشفيان لطب العيون، واحد إنجليزي يتبع إرسالية القديس يوحنا في أورشليم، والآخر ألماني. كل هذه المؤسسات حديثة، عدا الفرنسيسكانية، مع ذلك أهل البلد من المسيحيين واليهود والمسلمين يبنون مؤسسات لأنفسهم. ثمة مستشفى كبير ملك للكنيسة الأرثوذكسية، ويخضع لحماية البطريركية اليونانية، وعدد لا نهائي من المعاهد اليهودية التي تتخطى أعداد المعاهد الأخرى كلها، وتتميز بجودة عالية. أضف إلى ذلك أن المسلمين على الرغم من

التحديات الشخصية التي تواجههم -وتحديدًا استحالة توظيف نسائهم في العمل العام- يملكون مستشفاهم الخاص منذ فترة طويلة، وقد أسلموه لرعاية الراهبات الفرنسيات، وهن أيضًا مَن يعتنين بسجنائهم ويمرضن نساءهم في بيوتهم.

ينطبق الأمر ذاته على التعليم. أهل البلد المسيحيون واليهود والمسلمون لديهم الآن مدارسهم الخاصة، ويحاولون تطويرهم لأفضل كفاءة. يدركون أن كثيرًا من المدارس الأجنبية تتعمد هزّ وطنية الجيل الصاعد ودينه وذلك عن طريق تجاهل لغتهم. وقد تُحملت هذه النزعة لأن الدستور افتقر لقانون يُسهل تأسيس مؤسسات محلية، ودفع بالضرورة الناس للبحث في مصر وأمريكا عن سبل للعيش. الآن وقد فُتحت حقول كثيرة للتعليم، عدا في حالة المعاهد الألمانية التي تصر على تعليم الفتى التجارة، أصبح الهدف الأول من المعاهد الأجنبية هو تعلم اللغات الأجنبية لتخريج الترجمانات وهو أمر لا يهدف للتثقيف من جهة، وسيفقد مزيته كمهنة مجزية على المدى البعيد من جهة أخرى.

الفصل السابع

الأحوال الاجتماعية في الأرض المقدسة

رعاة في بيت لحم.

المعطف، «العباءة»، يرتدوها كثوب خارجي، ارتداها المسيح «دون خياطة»، وتمثل علامة مميزة.

الأرض المقدسة معضلة مثيرة للاهتمام إذا تناولنا دراستها من أي منظور: اجتماعي أو ديني أو سياسي. هي دولة دون شك «في حالة حراك»، لكن من التهور الجزم الآن إلى أي اتجاه تتحرك. حتى وقت قريب بدت القوات الصهيونية تكتسح كُل شيء أمامها، لكن من المثير للاهتمام مشاهدة نمو روح وطنية معادية للصهيونية في نفوس سكان فلسطين منذ أزمة ١٩٠٨ التي منحت تركيا دستورًا. وقد أعطى البلد درسًا موضوعيًا عن الارتباط الوثيق بين تلك الروح وفرصة تنمية فضائل الأمل والحرية والاستقلال.

قبلذاك كانت محاولة خلق حالة من الجهود الذاتية محاولة دون طائل، وكذلك حث الناس -مهما بدا طموحهم- على التصرف بأنفسهم. «لماذا تعتمدون دومًا على الغريب عنكم عرقًا ودينًا وروحًا في مدارسكم ومستشفياتكم؟ لماذا تسمحون بخسارة أبنائكم لزيهم الوطني ودينهم وروحهم؟ وأن تصبحوا -في كثير من الحالات- أشباه أوروبيين ليسوا حتى من الطبقة العليا؟» تأتيك الإجابة دومًا دون اختلاف بين المسلم أو المسيحي: «إذا تمكنا من استصدار فرمانات (رخصات حكومية) لبناء المعاهد، كما يفعل الأجانب، فسنتصرف باستقلالية تامة!» وهذا لم يكن محض كلام؛ ففي الأسبوع ذاته حين وضع الدستور، خُطط لإنشاء «مدرسة دستورية» وسُرعان ما افتُتحت في أورشليم على يد معلمين شباب «حزب الاتحاد والترقي» من المسلمين واليونانين واللاتينين، وهم بأنفسهم أقروا فضل المدارس الأوروبية حيث تلقوا تعليمهم ليصبحوا معلمين.

وحدها بيروت المدينة الأكثر استفادة بما قدمه الأجانب حيث أسهمت كليتا الجيزويت والأمريكية في تعليم شبابها سنوات أكثر من أي مؤسسة أخرى. حتى هنا يعتمد الشعب على نفسه بالفعل. يؤسس أسقف الكنيسة اليونانية -وهو من أهل البلد- مدارس كبيرة للصبية والفتيات حيث سيتعلمون لغتهم وآدابهم وكيف يفخرون بعرقهم.

يمكن ضرب مزيدًا من الأمثلة، وربما لا مثال أفضل على تقدم الحضارة من تأسيس جمعية لمنع العنف ضد الحيوانات، وهذا أيضًا بفضل إصدار الدستور. لسنوات، وعلى فترات زمنية مختلفة، حاول شخصان أو ثلاث تحقيق هذه الجمعية على أرض الواقع، ولكن دائمًا ما أخبرهم المقيمون الأوروبيون أن المحاولة

دون جدوى ولا أمل منها، أضف إلى هذا القول القيود المريرة التي تفرضها عليهم القوانين. الآن أقيمت جمعية ناشطة وفعّالة، يرأسها حاكم أورشليم، وقد استغلت الجمعية عائدات الغرامات التي حصلتها البلدية خلال السنوات الثلاث الماضية لتُنشئ مستشفى لحيوانات الجر المصابة.

عرف اليهود كيف يقبلون هذه الروح الجديدة لصالحهم التي بدت في لحظة ما أنها ستطيح بتقدمهم في الأرض المقدسة، لا عجب في ذلك بالنظر إلى قدرتهم على التأقلم التي جعلت أمتهم ما هي عليها في يومنا هذا بل وبالطبع منحت وجودهم الاستمرارية إلى يومنا الحالي. لعبوا دور الولاء، ربما لا يمكن القول الولاء التركي، ولكن دور التفاني والإخلاص للمصالح التركية الذي تواءم مع تعلقهم الطبيعي بالأرض نفسها.

حائط مبكى اليهود في أورشليم.

اثنا عشر يهوديًا من «المعبد». في الخلفية مجموعة تقرأ التراتيم اليهودية الجميلة المُعتاد قراءتها أمسية كُل جمعة.

أصبح عدد كبير من المهاجرين اليهود رعايا أتراك ولا سيما المهاجرون الروس المتزايد عددهم، بينما آخرون كثر اعتادوا ارتداء الطربوش علامة الرعايا الأتراك، على الرغم من احتفاظهم بحماية دولهم الأوروبية. وعليه يملك اليهود الفرصة لتحقيق أطماعهم الخاصة، وفي الظاهر يسهمون في رفاهية البلد كرعايا مخلصين. على صعيد السكان، تجاوز عدد اليهود أعداد كُل سكان يهودا مجتمعين. وعلى الرغم من أن كثيرًا من المهاجرين ينتمون إلى فئة الأجانب غير المرغوب فيهم، أحدث اليهود تغييرًا مفيدًا للغاية في مواجهة البلد.

كانت أورشليم مركز آمالهم وأنشطتهم، ووفر المعهد بفضل سخاء يهود أوروبا وأمريكا ما يحقق كُل احتياجاتهم. لليهود مدارس ذات جودة غير مسبوقة، عدا بين أبناء الجالية الألمانية، ويحتذي بهم اليهود، ويتخرج فيها رجال يلتحقون بالجامعة ونساء متعلمات. يخضع اليهود للشروط والضوابط نفسها التي تُطبق في المعاهد في ألمانيا، أو في إنجلترا وذلك يقتصر على مدرسة البنات التي أسسها آل روتشيلد وأسهم في تأسيسها عائلة مونتيفيوري. كما يملك اليهود عدة مستشفيات وفي واحد منهم على الأقل نجد كُل ما يمكن تقديمه من علم وإحسان. نجد عند اليهود وحدهم مركزًا للمشردين، ومستشفى للمجانين، والمصحة الوحيدة التي ترعى المسنين، والمكتبة العامة الوحيدة، وكذلك مدرسة الفنون الوحيدة.

مع ذلك، التمس اليهود في الآونة الأخيرة حكمة توزيع جهودهم، ويتوسعون في تطوير أعمالهم الناجحة بالفعل في النهوض بالزراعة. يملكون -شأنهم شأن الألمان- مستعمرات زراعية واسعة في بادية شارون، ويزيدون سنويًا مساحة الإنتاج البستاني. لقد أضافوا كثيرًا إلى تنوع الفاكهة المزروعة، وحتى المسافر يستطيع إدراك تغيير ملحوظ في المناظر الطبيعية حيث تزدان سفوح التلال عامًا تلو عام بمزارع الكروم وأحواض الزيتون وحدائق البرتقال والبساتين، بعد أن كانت في الآونة الأخيرة مقفرة وجرداء.

انجذب اليهود إلى شمال فلسطين لِمَا تُمثله صفد وطبريا من قداسة في عقيدتهم، وهنا في أورشليم أيضًا يتملكون الأراضي في كُل صوب. يجري التجهيز في الجليل لمدرسة صناعية ضخمة ومُجهزة تهتم في المقام الأول بالزراعة والبستنة. وتتبع خطا المدرسة التي أنشأها الألمان والبطريركية اللاتينية في أورشليم واليهود أنفسهم في المنطقة الواقعة بين أورشليم ويافا منذ عدة سنوات.

يُلاحظ أن التأثير الألماني نافذ في كُل أنحاء الأرض المقدسة. في أورشليم، وفي يافا، وفي حيفا، تزدهر المستعمرات الألمانية، وهم يختلفون تمامًا بلا شك عن الألمان المنخرطين مع السكان الأصليين لغرض التجارة أو الحج شأنهم كسائر الأوروبيين. المؤسسون الأصليون لهذه المستعمرات هم «فرسان المعبد»، الطائفة الدينية التي يمكن القول إنها تتفق إلى درجة ما مع جمعية الأصدقاء الدينية(63)، وقد أفسحوا مكانًا لهم في القرى التي أسسوها بأنفسهم منتهجين قدراتهم الصناعية وتقواهم الشخصية، وأصبحوا درسًا قيّمًا للسكان الأصليين للبلاد.

سقا.

في حالة الحاجة إلى مورد للمياه أكبر مما تستطيع المرأة حمله في جرة، تقع المهمة على عاتق رجلٌ يحضر الماء من البئر في قربة مصنوعة من جلد الماشية.

منازلهم خاطفة للأبصار، تقع في حدائق غناء، شوارعهم واسعة ومزروعة، والبنية التحتية للمياه والمرافق الصحية مؤسسة أفضل تأسيس. لهم معاهدهم الخاصة التي تُدرس كُل شيء، ويمثلون إضافة ثمينة إلى سكان أحيائهم لأن لهم لمسة فنية تُضيف إلى الحي. بينهم نجد البنَّاء، والحداد، والبستاني، والميكانيكي، والعامل في مصانع الصابون، وصانع النبيذ، وصانعو الجعة، وكذلك عدد من عمال الفنادق وموظفين الدولة. علاوة على ذلك، يُعنى الألمان بإدارة أغلب المتاجر الأوروبية، ولهم حصة كبيرة من أعمال المصارف والتصدير خارج البلاد.

سنجد في أغلب القنصليات حول البلاد مثل السويدية، والنرويجية، والهولندية، موظفين ألمان. كذلك تحمل مكاتب البريد الألمانية والنمساوية الرسائل من البلد إلى عدة دول مجاورة لدولتيهما، وكذلك إلى إنجلترا وأمريكا. أما روسيا وفرنسا وإيطاليا فلهم مكاتب بريد خاصة في أورشليم ويافا، إلّا أن البضائع الجمركية كُلها تمر في طرود عبر البريد التركي. بُنيت معظم خطوط السكك الحديد في البلاد بسواعد

مهندسين فرنسيين وألمان. وعلى شرف وصول الإمبراطور الألماني عام ١٨٩٨ مُهدت الطَرق، وبُنيت الجسور، وحلّ التطوير على الأماكن المتوقع زيارته لها.

علينا تذكر أن الأرض المقدسة ليست مجرد ولاية تركية يسكنها العرب، بل هي بقعة كوزموبوليتانية تجمع أجناسًا من قارات مختلفة على وجه الأرض. ستمثل هذه المسألة سلسلة من المعضلات لأي حُكم آخر، معضلات سياسية وأخرى دينية، ويمكن تبسيط الحقيقة الآن للحكومة الحالية إذا قلنا إنَّ العالم ينقسم إلى طبقتين: سياسية أو دينية. الطبقة الدينية تنقسم إلى مسلمين وغير مسلمين، إلّا أن الحكومة تميز المسيحيين عن اليهود. أما الطبقة السياسية فهناك تمييز بين الكاثوليكي والبروتستانتي، بغض الطرف عن المغالطة التي قد تنتج عن ذلك.

على سبيل المثال، يرى المسلمون أن القبر المقدس هو بقعة عبادة للمسيحيين، والمسلم نفسه يبجله على الرغم من إيمانه أننا مخطئون في افتراض أن المسيح قد قُتل، ولهذا السبب يُفضل المسلم أماكن مقدسة أخرى أكثر من القبر المقدس مثل قبر العذراء. يملك السلطان السلطة الكاملة على هذه الأماكن، وقد حولت أماكن كثيرة مثل غرفة العشاء الأخير، وكنيسة الصعود، والبقعة حيث «بكى يسوع»(64)، من كنائس إلى مساجد، مع ذلك مسموح لنا دخولهم وكذلك ممارسة شيء من طقوسنا. فماذا سيحدث لامتيازاتنا تلك إن امتلك اليهود الأرض المقدسة أو أي أمة مسيحية؟ على سبيل المثال، داخل كنيسة القبر المقدس ثمة مذابح لاتينية ويونانية وأرمينية وحبشية وقبطية وسورية وحتى مذابح تخص الكنائس الكاثوليكية الشرقية. هل ستدافع أي كنيسة مسيحية عن حق الجميع في الاعتراف بالنزاهة نفسها التي تظهر اليوم؟ وهل لنا الحق في الإخلال

بإيمان كنائس وجدت قبل دهر من وجودنا، ويشاركونا العقيدة نفسها، وقدموا للعالم معارف لاهوتية حين كان سكان الجزر البريطانية يرتدون أوراق النباتات؟ من المؤكد أن النتيجة الطبيعية لعرفاننا لكل ما قدمه لنا الشرق، أن نساعد في رفع مستوى أولئك الأقل منا تقدمًا في الثقافة والأخلاق والفكر وتثقيفهم، ولا يزال هناك كثير لنقدمه في هذا الصدد.

نساء بدويات.

يضعن أنفسهن في مرتبة أعلى من الفلاحين، ولا يتزوجن منهم أبدًا. يتميزن بملامح جميلة، وشعر مدهش، ولهن مكانة أكبر في منازلهن.

كما رأينا، أظهرت الحكومة التركية دومًا روح القبول والتعاطف التي ربما على الأمم الأكثر تطورًا محاكاتها. لقد سمحوا بمكوث البعثة اللاتينية في فلسطين ممثلةٍ في الإرسالية الفرنسيسكانية منذ القرن الثالث عشر. كما أُعيد إحياء البطريركية عام ١٨٤٧ التي أُسست لأول مرة خلال الحكم الفرنجي، وأسست أعداد كبيرة من الإرساليات الدينية أديرة تابعة لها، وكذلك مدارس ومستوصفات تابعة لتلك الأديرة في كل أنحاء المدن والقرى حول البلاد. قسم كبير من أعمال البطريركية اقتصر على تدريب الرهبان المحليين ومديري المدارس، والمعلمات، والممرضات، ليعملوا بين شعبهم. كُرست أول كنيسة أنجليكانية في عام ١٨٤٩ في أورشليم ومثلها أسقفية مشتركة بين الكنائس الإنجليزية واللوثرية. لم يستمر هذا الوفاق فترة طويلة، وأُسست أسقفية في عام ١٨٨٧ على أُسس جديدة، كما أُسست كنيسة جماعية موقرة وأُلحقت بها مدارس ومعهد تمريض صغير. أضف إلى ذلك جمعيات تبشيرية كثيرة إنجليزية وأمريكية. ويملك الألمان والبروتستانت والرومان الكاثوليك مدارس في مختلفة البقاع، وكذلك مستشفيات ممتازة في كل أنحاء البلاد، يشرف عليها شمامسة كايزرورث أو شمامسة أي إرسالية أخرى.

الدستور الجديد الذي منح الحرية للرعايا الأتراك أضاف إليهم قليلًا مما يتمتع به بالفعل المهاجرون من الدول الأجنبية. حتى إنجلترا نفسها، ملجأ المنبوذين في العالم، لا تستطيع أن تظهر كرمًا أو حرية أعظم.

لذلك نرى ما تدين به المسيحية للمسلم، وما يمكن أن تتعلمه الحضارة من الأقل تحضرًا، وما تدين به أوروبا لكرم التركي. حقًا، السفر يميل إلى توسيع المفاهيم!

مدينة دمشق.

واحدة من الصناعات الرئيسة في دمشق هو غزل الحرير وتطريز الأثواب الحريرية وذلك في مقاطعة جبل لبنان.

الفصل الثامن

الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة

لقاء على الطريق.

ثمة أسماء بعينها لا يغفل العقل تذكرها حين تُذكر الأرض المقدسة. أسماء أماكن تاريخية أو دينية هي التي تثير اهتمام أفكار المرء نحو الأرض المقدسة. بعض الناس يرفض الحج إلى أورشليم خشية أن تتحطم الصور المُتخيلة مسبقًا عن المدينة. مع ذلك، سنجد أن أصحاب التوقعات السلبية هم أقل مَن يعرفون البلاد.

يُزعم أن أورشليم من النظرة الأولى تُشبه ضاحية إيطالية متواضعة الحال، وقد يكون زعمًا في محله. مع ذلك، الإضافات المستمرة إلى المنازل الجميلة وباهظة التكلفة تحث على محو هذه الوصمة. السفر بالقطار في حد ذاته يُخيب ظن بعض الظانين على الرغم من كون الرحلة مثيرة للاهتمام. من الأشياء المحطمة للصور السلبية المتخيلة مسبقًا عن المدينة هي طلاء المباني بالجير الأبيض في مدينة قليلة المطر مما يحافظ على مظهرها الجديد مدة طويلة.

وصف صعوبات الرسو في يافا -ميناء أورشليم- عادة ما يأتي مبالغًا في تقديره. مع ذلك، من المزعج أن ينتظر السائح في الميناء، أو حتى أن يعرقله الطقس العاصف، خاصة السائح الحر الذي يملك وقت فراغ محدود، وخطة زيارة مُحددة مسبقًا. يتساءل المرء كيف جلب سليمان إلى هنا أشجار الأرز، والعاج، والقردة، والطواويس. كما لا تُفاجئنا الصعوبات التي واجهت يونان حين بدأ رحلته من ترشيش.(65)

نرى من البحر مظهر مدينة يافا الخلاب، ومبانيها الرمادية القائمة بين حدائق البرتقال الفوَّاحة. حين نصل إلى الشاطئ، وتصل المياه إلى كعوبنا، أو الطين وفقًا لموسوم رسونا، تنضح فينا الطاقة والعزيمة على الطريق إلى اللِد لزيارة منزل سمعان الخراز -ما زال مخرزة- ومنزل طابيثا(66). نجد وقتًا لهذه الزيارات قبل الصعود على متن القطار المتجه إلى أورشليم، ولكن قلة هذه الأيام يأخذون الطريق الريفي القديم الأكثر متعة.

على أي حال، تُقدم لنا الرحلة عبر السكك الحديد أشياء مثيرة للاهتمام. نمر عبر اللد، مسقط رأس مار جرجس ومدفنه، ثم الرملة التي يعدّها كثيرون الرامة، وفيها نجد أطلال كنيسة من العصور القديمة، وكذلك أطلال من العمارة الساراسنية التي تُثير اهتمام طلاب التاريخ. نحن الآن نقطع برية سهل حيث أصناف لا حصر لها من الزهور التي تشهد على خصوبة الأرض التي جعلت من «نرجس شارون» مضرب المثل في الأيام الخالية. سهل شارون هو كذلك صومعة حبوب جنوبي فلسطين، ويستغل المستوطنون اليهود هذه المزية بشراء الأراضي كُلما استطاعوا. يُلاحظ كُل عام تغييرات في المناظر الطبيعية، حيث تشهد الأرض عامًا تلو آخر توسعات هائلة، ليس في البرية فحسب، بل في التلال الحدودية المنخفضة، التي كانت ذات يوم جرداء ومقفرة، تُزرع هذه التلال الآن بأشجار الفاكهة من شتى الأنواع، وتتاخم

قُرى أولئك المزارعين المثابرين. للألمان أيضًا نصيبهم من التوسع حيث توثر قرية فيلهلما(67) كافة منتجات الحليب والنبيذ الفاخر لأورشليم.

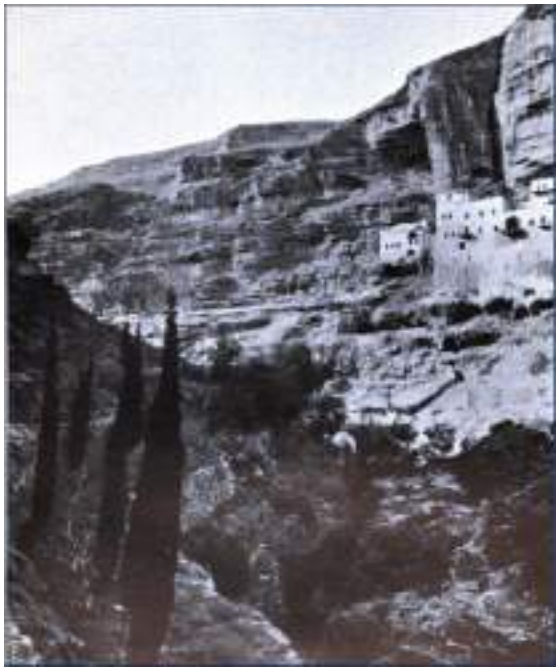

دير مار جرجس.

في الأسفل نهر كريث.(68) كما في وقت إيليا لا يزال النهر آخر ما يجف في الوادي.

نرتحل ساعتين بعد مغادرة السهل عبر الممرات الجبلية الضيقة التي تأخذ في الصعود شيئًا فشيئًا ولمسافة تزيد عن ثلاثة آلاف قدمًا إلى أورشليم. كم من أحداث الإنجيل وقعت في هذه الممرات الضيقة، لا سيما حين دفع الفلستينيون قبائل بنو إسرائيل نحو هذه الحدود! على المرء أن يتذكر أن «المدن القوية» للعدو تقع في البلد الخصب الذي تركناه وراءنا. يبدو أنَّ سفوح التلال شديدة الانحدار تلتقي تقريبًا فوق رؤوسنا بينما نكابد لنصعد عبر الوادي الجاف أغلب فترات السنة. يهددنا تساقط الصخور الضخمة، ونتخيل أيام التجأ داوود إلى هذه الكهوف الكئيبة، أو ملاحقة شامشون للثعالب في هذه الانحاء -وأرجح أنها كانت حيوانات ابن آوى- التي دمرت كروم الفلستينيين فوق الهضبة أو في السهل الممتد.

أخيرًا يصل القطار إلى محلة رفيديم، تنحسر التلال ونلتمس الهواء الجبلي الألطف في أورشليم. حينها تشعر بالندم لأنك لم تأخذ الطريق الريفي حيث لا يرى الركاب سوى أورشليم مما يُخيب آمالهم. خلف أورشليم يمتد في الأفق بيت لحم، وقِبالتنا، بعد منحدر حاد الصعود، يقع جبل صهيون وقلعة داوود التي تعود إلى عصر هيرودس. عند رأس وادي هنّوم يقع المستشفى البريطاني لطب العيون، يرعاه إرسالية

القديس يوحنا في أورشليم. وبعد عين سِلوان تقع المستعمرة اليهودية التي بناها السير موشيه مونتيفيوري. وهكذا يختلط القديم بالجديد!

تقع بلدة أورشليم القديمة داخل أسوار المدينة. يتعذر مرور المركبات عبر شوارعها، وعدد كبير منها يتكون من درجات صاعدة التل شديد الانحدار. بين أسوار المدينة نعثر على كنيسة القبر المقدس، وجبل جلجثة، وطريق الآلام، ومنطقة المعبد، وحائط مبكى اليهود، وغيرها من الأماكن المقدسة. ليس هذا الكتاب مجالًا لإثبات أصالة هذه المواقع. قيمتهم تكمن في القلب الذي يشعر والعين التي ترى. أكثر المواقع التي يُشك في أمرها كرَّست قيمتها صلوات الحجيج ودموعهم وآلامهم لألفي عامًا تقريبًا. مواقع عدة، من بينها طريق الآلام، لا يمكن أن تجد إثباتًا مؤكدًا أصالتها. ويمكن القول إن بعضها مستحيل إثبات أصالته. على الرغم من رفض الحقائق غير المُثبتة، يمكن القول أن الإثباتات العلمية الحديثة تتزايد في صالح الدفاع عن أصالة عدد من المواقع مثل القبر المقدس وجبل جلجثة، وذلك بفضل -وبسبب- الانتهاكات التي سمحت ببناء معبد فينوس فوق القبر المقدس، وبناء معبد جوبيتر فوق موقع الهيكل اليهودي، الانتهاكات التي استهدفت تشتيت الانتباه عن كُل ما هو مقدس في المسيحية. استعاد الإمبراطور قُسطنطين في القرن الرابع هذه المواقع واحتفظت بقدسيتها مذّاك.

عبر كاتب في صحيفة التايمز مؤخرًا عن رد فعل النقد الحديث على هذه المسائل قائلًا: «لقد علمتنا سلسلة طويلة من التساؤلات المتشككة أن نعتبر كُل بقعة وقع فوقها حدث شهير هي بقعة قابلة للتشكيك في صحتها، إلّا إن كان الشك واقعًا على الحدث نفسه. إذا حررنا عقلنا من هذا الكبرياء غير المنطقي أمام كُل التقاليد فسنرى أنَّ موقع كنيسة المهد على سبيل المثال لا مجال للتشكيك فيه، وغيره كثير من المواقع.» حجته للدفاع عن موقع كنيسة بيت لحم ينطبق على الأماكن الأخرى.

خارج أسوار أورشليم بُنيت كثير من المباني خلال السنوات العشرين الأخيرة، إلّا أن مباني أخرى بُنيت قرابة تاريخ حرب القرم، هذه الأخيرة تخدم السياح الذين يتذمرون من الفنادق والمحال الجديدة التي بُنيت بلا شك لخدمتهم.

أورشليم.

يؤدي الطريق صعودًا من المحطة إلى البلدة القديمة. تقع بلدة أورشليم القديمة داخل أسوار المدينة. أما القسم الأحدث، فيقع خارج الأسوار، وبُني أغلبه خلال العشرين سنة الأخيرة.

مع ذلك ثمة مبانٍ جميلة أغلبها لمُلاك ألمان وفرنسيين ويهود، مباني الأديرة أو الكنائس أو المدارس أو المستشفيات. الأطرزة الحديثة والغربية لبعض هذه المباني يُحزن، لكن ثمة ثلاث مبانٍ ألمانية حديثة أفلتت من هذه الحداثة أولهم مضيفة القديس بولس، بُني على طراز القرن السادس عشر لأسوار المدينة وكذلك باب دمشق وكلاهما يجاور المضيفة، وثانيهم مبنى الكنيسة الألمانية البندكتية تميزه تفاصيله المثالية، والثالث هو منزل النقاهة الكبير فوق جبل الزيتون، وهو كذلك نسخة من المباني العتيقة للقرن السادس عشر.

بُنيت كنيسة مار جرجس وملحقاتها -المدرسة ومقر الأسقفية الإنجليكانية في أورشليم- على الطراز الإيطالي البديع. وتقع على مسافة من المدينة في اتجاه جبل الزيتون. أما جمعية لندن لتحويل اليهود إلى المسيحية فبُنيت على الطراز الفيكتوري المُبكر وكذلك كنيستها ومستشفاها. اليهود أنفسهم يملكون عددًا من المباني الجميلة، ومنازلهم تُغطي تقريبًا ثلث عدد المباني خارج أسوار البلدة القدية، ولكن للأسف أغلبها قبيح المظهر ومتجاورة لدرجة التكدس.

من وجهة نظر فنية ومعمارية، لا يمكن مقارنة أي مبنى من مباني دولة فلسطين كُلها بما يُعرف بمسجد عُمر، وهو في الحقيقة ليس مسجدًا وليس مقترنًا بعُمر، والاسم الصحيح له هو «قبة الصخرة»، والصخرة في التراث يُظن أنها مذبح لأضاحي المُعبد وكذلك موقع التضحية بإسحاق(69)، وبيدر أرونة اليبوسي.(70) تُمثل الصخرة الآن مصلى مقدسًا للمسلمين، يجاور المسجد الأقصى ثاني أقدس المواقع الإسلامية بعد مكة، ويمثل المصلى اليوم تحفة في الفن المعماري الشرقي، ويظن بعضٌ أنها فاقت تاج محل جمالًا في التصميم والألوان. يحد الحرم مبانٍ فرعية، والمنطقة كاملة تُغطي خُمس مساحة المدينة.

يسمح المحمديون، بتسامحهم المعتاد، بدخول المسيحيين بحرية، مع الاتفاق على التزام المسيحيين بالشروط التي تقتضيها قُدسية المكان.

من بين أسوار منطقة الحرم ننظر مباشرة إلى وادي يهوشافاط أمامه مقابر كثيرة وتضم مقبرة أبشالوم الملعونة عند اليهود إلى يومنا، وكذلك مقبرة زكريا بن برخيا في الجهة المقابلة لوادي الزيتون، ويقع بستان جثيسماني ووادي النار على أعتابه. عند جانب التّل ناحية الأعلى نجد الكنيسة الروسية وخلفها تقع قرية بيت عِنيا الصغيرة.

شارع في أورشليم.

نموذج للشوارع داخل أسوار المدينة. يقع الشارع في الحي المحمدي، ويمكن أن نرى المشربيات وهي نوافذ مشبكة لغرف النساء.

حافظت بيت لحم حتى وقت قريب على مظهرها العتيق الشرقي بتميز، لكن المطالب المتزايدة لتوفير أماكن لاستقبال الزائرين، ولا سيما خلال فترة الاحتفال بعيد الميلاد المجيد، أجبرت الفرنسيسكانيين على إقامة مضايف إلى جوار مبانٍ كانت نتاج ستة عشر قرنًا من الإعمار تناثرت إلى جوار الكنيسة

القديمة حيث يقع المزود الذي ولد فيه يسوع المسيح. هنا في بيت لحم نجد كنائس ومضايف لاتينية ويونانية وأرمنية وسورية.

على الرغم من عدم تفرد المباني المشوهة فهي بالتحديد ما تكرهه العين. خارج المدينة الصغيرة نجد المستشفيات الرومانية الكاثوليكية والألمانية وكذلك الأديرة والمدارس، كما يقع المعهد الإنجليزي الوحيد، ومدرسة للبنات متوارية عن الأنظار. علاوة على ذلك نجد أهل بيت لحم صناعيين ويميلون لإدارة الأعمال وقد طوروا من تجارتهم الخارجية وأخذوا في بناء منازل جديدة في ضواحي بيت لحم.

يُنسى كل ذلك على أي حال حين ندخل كنيسة المهد. يقول المتخصصون إنها الكنيسة الوحيدة من بين كُل الكنائس المعاصرة لمجد المسيحية أُسست في المواقع الشهيرة في فلسطين التي لم يكتمل بناؤها. يبدو أن غزاة أورشليم التدميريين، الذين دمروا الآثار المسيحية مرة تلو أخرى جزئيًا أو كليًا، مروا مرور الكرام على بيت لحم، يمكننا النظر إلى أعمدة قسطنطين وأبراج جستنيان بالثقة ذاتها التي ننظر بها إلى الحوائط غير المكتملة حول المذود حيث ولد المسيح والتي تحميه وتمجد ذكراه. أعلى التل يمكننا رؤية حقل بوعز والفدادين التي أعطت يوسف الحق في اعتبار نفسه مواطنًا في بيت لحم. تمتد في السهل حقول الرعاة، وكذلك أطلال كنيسة مسيحية قديمة إلى جوار كهف يُعتقد أن الرعاة «يُبيتون فيه قطعانهم ليلًا»، ويقع في أسفل الوادي نحو البحر الميت التل المخروطي حيث ربضت قلعة هيرودس التي نظرت إلى المدينة الملكية بعبوس يوم سكن الطفل يسوع المدينة.

مدينة الخليل أقل عصرية. ربما السبب المحتمل لغياب المباني الكنسية في المدينة هو غياب ارتباطها بالعهد الجديد. وحدها الكنيسة الروسية -بين كنائس الشرق والغرب- وفرت خدمات للحجيج منها إقامة مضيفة، وكنيسة صغيرة للصلاة، كلاهما إلى جوار ما يُعرف ببلوطة إبراهيم يُزعم أنها بقايا شجرة عتيقة تقع في منطقة لها قدسية منذ زمن طويل.

السكان اليهود والمسلمون على حد سواء يتشاركون التعصب وغياب الضيافة، وكلاهما يعتبر مغارة المكفيلة(71)، مكان دفن إبراهيم جدهم المشترك، مكانًا مقدسًا. مع ذلك، لا يسمح لليهود بدخول المسجد الكبير ببرجيه التوأمين المذهلين، لكن يجتمعون للصلاة عند مدخل مخصص يعتبرون الأقرب إلى المكان المقدس. ويُقدّم مستشفى إسكتلندية خدمات مفيدة لفقراء المدينة.

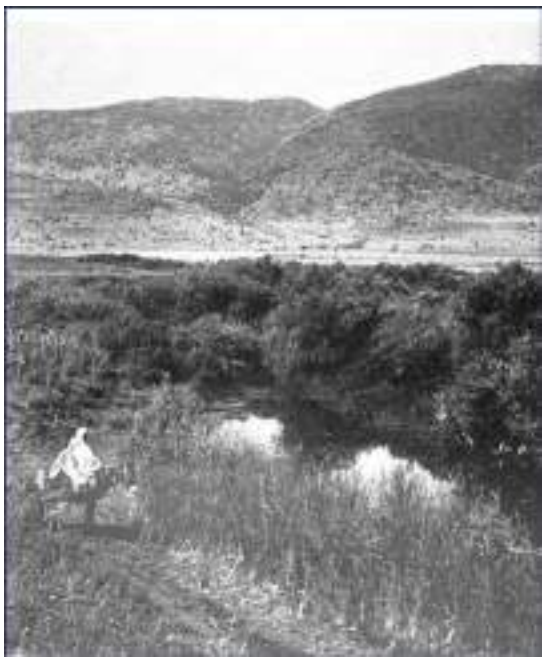

ضفتا نهر المقطع وجبل الكرمل.

يظن المسلمون واليهود بالقدرات الشفائية التي تقع داخل كهف في جبل الكرمل له صلة بإيليا النبي.

تقع الناصرة على مسيرة يومين شمالي الجليل، ولها مناخ مختلف، وهي ضمن أكثر الأماكن المقدسة زيارة. تكثر المستشفيات والمدارس ودور الأيتام في المدينة وتتنافس الكنائس المسيحية في الخير السخي. إن التقاليد المتعلقة بالأماكن المقدسة تقاليد عتيقة، وحتى لو لم تثر «ورشة يوسف» أو «مطبخ مريم» إعجاب الفرد، فلا يمكن أن يشك أن العائلة المقدسة قد ملأت ذات يوم جراء المياه من نبع القرية، ولا يُنكر أنه أمام أعيننا الآن «حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه»(72) والذي سعى أهل مسقط رأس يسوع إلى إلقائه من أعلى الجبل.

نتذكر أنه ذهب إلى كفر ناحوم بعد هذه الواقعة. الرحلة إلى كفر ناحوم تَسُر في وقتنا هذا، نمر -إذا قطعناها- عبر قرية قانا الصغيرة حيث من المرجح أن نرى النساء يملأن جرارهن كما مشهد الزفاف، ثم نعبر أقدام جبل طابور، ويعتقد كثيرون أنَّ جبل طابور هو جبل التجلي حيث بنى المسيحيون الأوائل المظال للرُسل، ثم نعبر مروج الجليل البديعة التي تمثل النقيض الصارخ لبرية يهودا شحيحة العشب، في الجليل ترتفع زهور الجرس والدلبوث والأقحوان إلى سروج مُطيانا. ثم نعبر مدينة طبريا، وبعدها تبدو قرون حطين(73) كقيثارة يؤطرها تلال أرجوانية، وتقع إلى جوار بحيرة جنيسارت(74) وهي في حجم ويندرمر الإنجليزية، كما يُعتقد أن قرون حطين الموقع المحتمل لعظة الجبل(75) ناظرًا إلى المدى القريب نحو الشمال، حيث جبل حَرمون(76) يكلله الجليد غارقًا بين السحب.

ربما لا يبث مشهد من مشاهد الأرض المقدسة السكينة، أو يعيد إلى الأذهان رسالة العهد الجديد الرقيقة، كهذه المشاهد. إنها رسالة لا تغفل عنها الذاكرة أبدًا وأنت في الأرض المقدسة. ولكن هنا يشعر المرء أنه قد سمح للطبيعة أن تحمل الرسالة، وعليه ألَّا يستبعد الاختلافات والتناقضات التي قد تكون أُدخلت على هذه الرسالة بيد الإنسان. تُغطي الأزهار أطلال بيت صيدا وكُورَزين، وحين نصل إلى كفر ناحوم نتخطى شجيرات الدلفى القرمزية والبيضاء للنظر إلى الأنقاض التي تُعيد إلى أذهاننا قصة قائد المئة(77) المثيرة للشفقة قال عنه اليهود «إِنَّهُ مُسْتَحِقٌ أَنْ يُفْعَلَ لَهُ هذَا؛ لأَنَّهُ يُحِبُّ أُمَّتَنَا، وَهُوَ بَنَى لَنَا الْمَجْمَعَ.»(78) تنتشر الآثار اليونانية الرومانية حولنا في هذه الأنحاء، وكذلك اليهودية، وفي أماكن أخرى كثيرة، لكن هنا فقط هذا المزيج بين الاثنين الذي دفع علماء آثارنا إلى التخمين بأن هذه قد تكون بالفعل بقايا هدية المُحتَل إلى أهل القرية استحق بفضلها قائد المئة المديح: «وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ هذَا تَعَجَّبَ مِنْهُ!»(79)

نُزل محلي.

نُزل السامري الصالح على الطريق إلى أريحا.

بينما نسافر شمالًا، يبدون أننا نعود إلى تاريخ أقدم. في حيفا، رحلة يوم آخر، تحت ظل جبل الكرمل، تدور أفكارنا حول أيام العهد القديم: الكهف الذي أخفى داخله إيليا الأنبياء، وقمة الجبل حيث وجه نداء للانتصار على بعل، بينما نرى شمالًا سهل نهر المقطع حيث جمع إيليا الأنبياء الكذبة وقتلهم بطريقة وحشية تتماشى مع عصره.

مع ذلك، نجد هنا تذكيرًا مُرحبًا يتمثل في المستشفى الإنجليزي وحديقته المشرقة ومدرسته وكنيسة القديس لوقا الصغيرة، التي تخدم البشر وتنقذ أرواحهم دون تدخل في معتقداتهم وذلك نيابة عن أورشليم والبعثة الشرقية. إنها حقًا بقعة مشرقة وسط كثير من الظلام المحيط، واحة غير مرصودة بأعين العالم. هناك أيضًا مستشفى آخر ومدرسة ملحقة به يخدم فيها راهبات لطيفات ألمانيات من بعثة القديس تشارلز بورومیو.

وما زلنا في اتجاه الشمال، حيث نصل إلى بيروت، بكليتيها الأمريكية والفرنسية، ومستشفى الشماسين الألمان المعروفة، ومناخها الذي يوحي بشيء من الحضارة الأوروبية الزائفة، التي نهرب منها لندرس النقوش الصخرية التي أقيمت عند نهر الكلب احتفاءً بانتصار مصري أو أشوري عظيم، محى نابوليون الثالث أحدها ليُسجل انتصاره الشخصي!

ثم في بضع ساعات من السفر الفاخر على السكك الحديدية نصل إلى دمشق، وربما دمشق هي أقدم مدينة في العالم، وهناك تتمتع المدينة بإضاءة كهربائية وترام كهربائي وبجو غريب من الاحتجاج المؤقت وغير المجدي. في الشارع الذي يسمي «المستقيم» قد تضطر إلى لصق نفسك بالحائط المتهالك لتسمح بوحشية المرور الصاخبة، ولكن في لحظة ما تعود إلى «الشرق الذي لا يتغير»، وتفكر في ألعازر الدمشقي، وكيل إبراهيم، أو تفكر في نعمان السوري، أو في القديس بولس، أو أخيرًا تفكر في العظيم والكريم صلاح الدين، الذي نسميه في فصولنا المدرسية صلادين، يغطي قبره تذكارات من جنود آخرين يعرفون شيئًا عن عظمة قلبه مثل السير والتر سكوت. كما وضع الإمبراطور ويليام الثاني إكليلًا من الزهور فوق قبره، وهو آخر التذكارات.

هنا على أرض فلسطين تلتقي كُل الأجيال. في بلد مشرق الشمس ومغربها، نجد آثار أولئك من عرفوا الأرض، وأحبوا البحث في أسرارها، لنعرف أن الشمس قد غربت لتُشرق مرة أخرى.

بهو منزل في دمشق.

عدد من المنازل القديمة في دمشق مثيرة للاهتمام، لها واجهات منحوتة، وأرضيات مُعبدة بالرخام، وجناح كامل مخصص للحمام.

المترجمة: تقع جنوب أسوار القدس، وتُعرف بحامية القدس.

المترجمة: قرية فلسطينية مُهجَّرة.

المترجمة: يُعرف أيضًا باسم مسجد بلال بن رباح وهو بناء مملوكي/عثماني يقع على الطريق بين القدس والخليل وقريبًا من المدخل الشمالي لبيت لحم. ينسبه المسلمون إلى الصحابي بلال بن رباح، وينسبه اليهود إلى راحيل والدة النبي يوسف وزوجة النبي يعقوب، وله مكانة مقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود على حدٍ سواء.

المترجمة: الفِراك هو معطف للرجال، عادة ما يرتدونه في المناسبات الرسمية، يطول إلى أن يصل إلى الركبة، شاع خلال العصرين الفيكتوري والإدواردي.

المترجمة: لم تشر الكاتبة تحديدًا لهوية إبراهيم، يبدو أنه رجل التقته وتقصت منه المعلومات.

المترجمة: يُعرف أيضًا باسم وادي القضاء. وفقًا للعهد القديم فموقع الوادي الحالي غير معروف ويُختلف ما إذا كان وادي قدرون شرقي القدس أم وادي الجوز أم وادي الربابة.

المترجمة: عبارة توراتية وردت في العهد القديم تُشير إلى المناطق التي استقر فيها أسباط بني إسرائيل.

المترجمة: مقتطف من قصيدة للشاعر جون فريمان.

المترجمة: جون موراي هو واحد من أهم الناشرين الذين اعتنوا بنشر الكتيبات الإرشادية للرحلات إلى دول العالم.

المترجمة: كارل لوديج بادكر هو ناشر ألماني وضع قواعد صناعة الكتيبات الإرشادية للرحلات في العالم.

المترجمة: ربما سقط سهوًا من الكاتبة لكن ما أشارت إليه بالشعر هي آية ٢، مزمور ٤٨، ونصها كاملًا: جَمِيلُ الارْتِفَاعِ، فَرَحُ كُلِّ الأَرْضِ، جَبَلُ صِهْيَوْنَ. قَرَحُ أَقَاصِي الشَّمَالِ، مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ.

المحررة: يُعرف كذلك بالرمان الأصفر والرّمان العربيّ، وقيل إنّه كثرت زراعته قديمًا.

المحررة: أبراج من الحجر بُنيت ليستتر داخلها حُراس أراضي الكروم.

المترجمة: سفر نشيد الإنشاد، الإصحاح ٢، الآية ١٥.

المترجمة: تُشير إلى الزبيب.

المترجمة: كُتبت بالعربية ولكن بحروف لاتينية.

المترجمة: في الجملة تشبيه بالآية رقم ٢٣ من الإصحاح ٢٨ من سفر التثنية: "وَتَكُونُ سَمَاؤُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نُحَاسًا، وَالأَرْضُ الَّتِي تَحْتَكَ حَدِيدًا."

المُحرّرة: إشارة إلى المطر المبكر في سفر يعقوب: ٧ فَتَأَنَّوْا أَيُّهَا الإِخْوَةُ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ. هُوَذَا الْفَلاَّحُ يَنْتَظِرُ ثَمَرَ الأَرْضِ الثَّمِينَ مُتَأَنِّياً عَلَيْهِ حَتَّى يَنَالَ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ. والمطر المبكر هو المطر الذي يبدأ سقوطه بغزارة في أواخر أكتوبر ويستمر عدة أيام، وبه تبدأ السنة الزراعية.

المترجمة: (مت ٦:٢٩).

المترجمة: زهرة تنمو في دول حوض البحر الأبيض المتوسط، وتُعرف أيضًا باسم الصُفير وكف السبع.

المترجمة: تُعرف أيضًا بزهرة اللبن الحقلي، وحشيشة العلق، وقاتل العلق، تنمو في عدة دول منها بلاد الشام ومصر والمغرب العربي وتركيا.

المترجمة: نبتة برية تنمو في بلاد الشام.

المترجمة: نبتة جبلية تنمو في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وتُسمى أحيانًا زهور الجبل.

المترجمة: تُعرف كذلك بنبتة أذن الفيل، وتنتمي للفصيلة القلقاسية.

المترجمة: من فصيلة السوسنيات.

المترجمة: يُعرف عند العرب بالسحلبية أو السحلب.

المترجمة: نبات من الفصيلة الحوذانية.

المترجمة: نبات عطري.

المترجمة: اكتسب اسمه من نبتته التي تشبه الجرس.

المترجمة: تُستغل أوراقه في الطعام، وتُعرف باسم الخُبيزة.

المترجمة: نبتة مصرية قديمة ظهرت على نقوش المعابد المصرية، ولها استخدامات علاجية، مِن أسمائها كشك الماز واليَرَامِعُ.

المترجمة: تُشير إلى الشاعر الإنجليزي ويليام وردزورث.

المترجمة: مقتطف من قصيدة للشاعر لويس موريس.

المترجمة: مقتطف من قصيدة للشاعر الإنجليزية كولريدج.

المترجمة: السطر ٢٥ من المشهد الأول في مسرحية هنري الرابع (الجزء الأول) للمسرحيّ الإنجليزي ويليام شكسبير، وترجمة د. فاطمة موسى.

المترجمة: مقتطف من قصيدة للشاعر جون ويليام بورجون عن مدينة البتراء.

المُحررة: أي مئذنة.

المترجمة: شعب من الشعوب السامية الكنعانية عاش في جنوب الشام خلال الألف الثالث قبل الميلاد.

المترجمة: شعب كنعاني، يُعرفوا أيضًا بالفلستيين، استقروا في مدن كغزة وعسقلان ويافا.

المترجمة: مُصطلح يُستخدم للإشارة إلى العمارة المقطوعة في الصخر، التي شاعت خلال عصور ما قبل الميلاد.

المترجمة: غرف صغيرة شُكِّلت من طاولات حجرية ضخمة من الصخور الصوانية.

المترجمة: إر ١٣:٢.

المترجمة: مقتطف من مسرحية العاصفة لويليام شكسبير، ترجمة دار نظير عبود.

المترجمة: مقتطف من مسرحية العاصفة لويليام شكسبير، ترجمة دار نظير عبود.

المترجمة: تُعرف أيضًا باسم كف عائشة أو زهرة أريحا.

المترجمة: سفر التثنية الإصحاح ٦ الآية ٤.

المترجمة: الإصحاح ٢٥، الآية ٣١، سفر اللاويين.

المترجمة: تُعرف عربيًا باسم تل الحفيرة.

المترجمة: تعني لصًا بالإسبانية.

المترجمة: الإصحاح ٢٢، الآية ١٠، إنجيل لوقا.

المترجمة: رسومات كاريكاتورية لقط وقطة يرتديان ثياب الطبقة الأرستقراطية الغربية رسمها الفنان فيليب ويليام ماي.

المترجمة: اسمها العربي مرج ابن عامر.

المترجمة: تُشير الكاتبة إلى الآية ١ من سفر الملوك الأول من الإصحاح ٢١: «وكانَ لِنابوتَ اليزرعيليِّ كرمٌ في يَزرَعيلَ قريبٌ مِنْ قصرِ أخابَ مَلِكِ السَّامِرةِ.»

المترجمة: اللعازاريّون هي رهبنة كاثوليكية أنشأها فانسان دو بول في باريس.

المترجمة: تُعرف أيضًا باسم الإيوان.

المترجمة: الساراكينوس أو الساراسين، لفظ أطلقه الرومان على سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني آنذاك، ثم أصبح يُطلق على العرب كافة في العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية امتد ليشمل المصطلح كل مَن يدين بالإسلام.

المترجمة: الكنيسة المشيخية مصطلح يُشير إلى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم البروتستانتية وتُنظم تحت حكم مجالس الشيوخ وتتبع نهجًا ديمقراطيًا.

المترجمة: أحد أشهر أودية فلسطين ويقع جنوب مدينة أورشليم.

المترجمة: يقع في جبل الزيتون في مدينة أورشليم ويُعرف في العقيدة المسيحية بأنه المكان الذي صلى فيه يسوع الليلة السابقة للصلب.

المترجمة: معلومة في غير محلها، ربما لم تستوعب الكاتبة الفرق بين عيد الفطر وعيد الأضحى ومواعيدهما.

المترجمة: أقدم طائفة بروتستانتية.

المترجمة: يسرائيل زانجويل هو كاتب إنجليزي لأب وأم من المهاجرين اليهود من شرق أوروبا. عُرف عنه مقولة: «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.»

المترجمة: جمعية أسسها جماعة من المسيحيين البروتستانت، تُعرف أيضًا باسم مجموعة الكويكرز، في إنجلترا في القرن السابع عشر.

المترجمة: الآية رقم ٣٥ من الإصحاح ١١، إنجيل يوحنا.

المترجمة: القرية التي ذهب يونان لهداية أهلها وفقًا لنص الإنجيل. ثمة قرية تحمل الاسم نفسه الآن في جبل لبنان.

المترجمة: اسم أرامي معناه غزالة. وطابيثا هي تلميذة وفية لتعاليم المسيحية وحُوِّل منزلها بعد وفاة إلى مزار في مدينة يافا.

المترجمة: كانت مستعمرة لفرسان المعبد الألمان في فلسطين تقع جنوب غرب قرية العباسية قرب يافا.

المترجمة: يذكر الإنجيل أن إيليا النبي، ويعرف عند العرب بإلياس وأل ياسين، التجئ إليه وقت الجفاف.

المترجمة: يتفق معتنقو الديانة المسيحية بوجود ابن لإبراهيم يُضحى به، لكن يختلفون في أيّ ابنٍ لإبراهيم، فهو في العقيدة المسيحية إسحاق، وفي العقيدة الإسلامية أُمر إبراهيم بذبح إسماعيل.

المترجمة: وفقًا للعهد القديم هو رجل اشترى داود النبي بيدره على جبل عُرف حينها باسم جبل موريا، ومكان البيدر بنى داود مذبحًا للرب.

المترجمة: الحرم الإبراهيمي.

المترجمة: جزء من الآية ٢٩ الإصحاح ٤ إنجيل لوقا.

المترجمة: بركان ميت يطل على سهول حطين.

المترجمة: بحر الجليل.

المترجمة: تُعرف أيضًا بشريعة العهد الجديد وهي مجموعة تعاليم نُسبت إلى السيد المسيح وألقاها من جبل من جبال الجليل.

المترجمة: جبل الشيخ يمتد بين سوريا ولبنان ويطُل على فلسطين والأردن.

المترجمة: وفقًا للإنجيل عندما وصل السيد المسيح إلى كفر ناحوم أتاه قائد مئة، وهو لقب يطلق على الجندي الروماني المسئول عن فيلق الحامية، والتمس منه الشفاء لابنه المريض.

المترجمة: جزء من الآية ٤ والآية ٥ الإصحاح ٧ إنجل لوقا.

المترجمة: الآية ٩ الإصحاح ٧ إنجيل لوقا.

الفهرس

1. المقدمة
2. الفصل الأول
3. الفصل الثاني
4. الفصل الثالث
5. الفصل الرابع
6. الفصل الخامس
7. الفصل السادس
8. الفصل السابع
9. الفصل الثامن